

كتاب العربي

جميعها وترجمها ويقدّمها
الدكتور أنور أنور

مطبعة دار النهضة العربية - القاهرة

أدريس العبدى في مصر

أدريس العبدى

والشيخ العبدى

في مصر

(١٩٢٧ - ١٩٢٨)



Bibliotheca Alexandrina



00118779



مذكرات الفنان والمشرق الأتري

بريس دافين في مصر

(١٨٠٧ - ١٨٧٩)

■ المشرف على التحرير : جمال الغيطاني

● العدد ٣٢٣ ●

On 11/11/2019



كتاب اليوم أسسه د. طه أنيس د. طه أنيس

ثقافة اليوم وكل يوم

رئيس مجلس الإدارة
أبراهيم سعد

العدد ذو الحجة ١٤١١ هـ
٣٢٣ يوليو ١٩٩١ م
تموز
الصحافة ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط
تلكس دولي ٩٢٢١٥ - محلي ٩٢٢٨٢
الإشقرارات

جمهورية مصر العربية
قيمة الاشتراك السنوي ٢ جنيه مصري

القرب

في الخارج

إيطاليا	٢٠٠٠ ليرة
هولندا	٥ فلورين
باكستان	٣٥ ليرة
سويسرا	٤ فلورن
اليونان	١٠٠ روبية
البنمسا	٤٠ فرنك
الدنمارك	١٥ دراخمة
السويد	١٥ شلن
الهند	٣٥٠ كرون
كندا أمريكا	٣٠٠ سنت
البرازيل	٤٠٠ كرويزو
نيويورك واشنطن	٣٥٠ سنتا
لوس أنجلوس	٤٠٠ سنت
استراليا	٤٠٠ سنت

دول اتحاد الميريد العربي
والايريطى ٢٠ دولار امريكى لوما يعمله
بقلى دول العلم ولوزيا والامريكيتين
واسيا واستراليا ٢٠ دولار امريكى لوما يعمله
● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور
● قيرل القيمة إلى الاشتراكات ١٢ ش الصحيفة
القاهرة ت ٧٥٨٨٤٤ (٥ خطوط)

أسعار

كتاب اليوم

المغرب	٢٠ درهم
لبنان	٧٥٠ ليرة
الأردن	٧٥٠ فلس
العراق	٧٠٠ فلس
الكويت	٧٠٠ فلس
السعودية	٧ ريبالات
السودان	١٥٠٠ قرش
تونس	١٢٥٠ مليما
الجزائر	١٧٥٠ سنتيما
سوريا	٣٠ ل.س
الحيشة	٦٠ سنت
البحرين	٨٥٠ فلس

الغلاف : للفنان بريس دافين

« القاهرة القديمة - قرب باب الخلق - القرن ١٩ »

الملكيت : محمد عفت

إلى بهاء طاهر

الذى استحضر بفننه ذاكرة مصر العميقة .
وحداني وُدُّهُ لنشر هذا الكتاب .

★ ★ ★

* « النشر إحياء الميت كالنشور
والإنتشار .

وانتشار الورق : إوراق الشجر .
والمنشور الرجل المنتشر الأمر ،
وما كان غير مختوم من كتب
السلطان » . الفيروزآبادى

جنيف سنة ١٩٩١ من القاهرة سنة ١٩٥٨

ل . ل

■ تمهيد ■

إدريس أفندى (١٨٠٧ - ١٨٧٩)

مؤرخ أهمله التاريخ

لا أعرف مؤرخا مصرياً ممن عرضوا لحياة مصر في القرن الماضي تحدث عن « إدريس أفندى » أو أشار إليه ، وإدريس أفندى مع ذلك شخصية فذة هامة ، لا للدور الذى أداه فى سلك الوظائف الحكومية ، وإن يكن تقلب فيها سبع سنين بين التدريس والهندسة وبين القاهرة ودمياط ، بل لنشاطه الخصب فى ميدان التاريخ المصرى ، وما ترك من لوحات ومؤلفات ممتازة تجلو روائع ماضينا ، ومن مذكرات صريحة تصور حياتنا الاجتماعية ، وتلقى الضوء على أسرار الحكم والسياسة التى أثرت فى مصير مصر الحديث .

وما زالت أوراق كثيرة مما كتب إدريس أفندى مخطوطة لم تنشر حتى اليوم ، تحفظها دار الكتب الفرنسية بباريس . وهى التى نقدم مختارات منها فى الصفحات التالية .

فَمَنْ إدريس أفندى هذا الذى أهمله التاريخ الرسمى ؟

رجل ذكى مثقف يحصل العلم ويذيعه ، دون أن يكل عزمه أو يفتر إزاء ما يلقى من صعاب ، رجل كريم الطبع ، كبير الإباء ، شديد العريكة ، يعرف قدر نفسه ، ويعتد بحريته قبل كل شيء . وهذه كلها صفات أهله بجدارة لأن يعيش مغموراً ، وإن يموت فقيراً ، وقضت عليه بأن يهمله التاريخ الرسمى . فلو كان يتقن فن التملق والزلفى والمداينة إلى جانب ما أتقن من فنون ، ولو كان يحسن الطاعة والإغضاء ، ويعرف كيف يخفض جناح اللين للسادة ، إذن لراى الرضا ، وترقى من رتبة إلى رتبة ، ووصل فى ركب ذلك العهد إلى المنصب العالى ، والثراء العريض ، والمكان العزيز فى التاريخ الرسمى .

وها هو ذا يلتحق بخدمة « الباشا » عام ١٨٢٩ ، فيعيّنه مهندساً للرى ، ثم استأذاً للطبوغرافية فى مدرسة أركان الحرب بالخانكة ، وفى الوقت نفسه مربياً لأبناء إبراهيم . وإذ ذاك يقدم للوالى « مذكّرة فى أهم الأعمال التى يمكن تنفيذها فى الدلتا » ، ومن بينها حفر ترعة تمتد من الاسكندرية إلى القاهرة ، وإنشاء جسر معلق على النيل بين جزيرة الروضة وحدائق إبراهيم .

هكذا تبدأ القصة بداية سعيدة : فالأيام تبتسم لصاحبنا ، وتعدّه خير الوعود . ولقد غدا يشق طريقاً ناجحاً موفقاً بفضل ذكائه ، وقريحته الفطنة إلى الحياة العملية ، ومثابرته الشديدة . ولكنه بالرغم من هذا كله - أو لهذا كله - لا يلبث حتى يصطدم هو وعبد الله « بك » ناظر مدرسة الخانكة . وقد روى ابنه تلك الحادثة ، قال :

« ذات صباح - وكان ذلك يوم ٢١ من يولية سنة ١٨٢٩ - أرسل « عبد الله بك » رئيس المعسكر فى طلبه وكلفه طبع موسيقى الكنايب نظراً لمعارفه الخاصة ، ولعدم وجود من يقوم بهذا العمل ؛ فرفض پريس محتجاً بأن هذه المهمة لا تدخل فى دائرة اختصاصه . فغمره فى الحال سيل من الشتائم البذيئة ، وصدر الأمر بأن يكبل بالحديد إلى أن يعدل عن رأيه ويمتثل . ولما ظل رابط الجاش ولم تؤثر فيه جميع تلك التهديدات ، احدث غضب « البك » ، واصدر أمراً همجياً بجلده بالكرباج .. وعاد پريس إلى بيته ، فارسل استقالته إلى نظارة الحربية ، ثم وضع فى حزامه خنجرأ ومسدسين ، ومضى يحمل بنفسه استقالته إلى « البك » . وإذ دخل عليه القاهما تحت قدميه قائلاً له : إنه بهذه الاستقالة التى أرسل منها نسخة إلى القاهرة قد استرد حريته ، وإنه خليك بأن يرميه بالرصاص فى رأسه دون أن يستطيع واحد من حرسه أن يمنعه ، إذا هو حاول - وإن كان ناظرأ - أن يعتدى عليه . وشده الناظر فلم يجر جواباً ، أما پريس فامتطى حصانه ، وبلغ نظارة الحربية حيث اعتذر إليه المسؤولون » .

غير أن تصرفاً من هذا القبيل لم يكن من شأنه فى ذلك العهد أن يفتح سبيل التقدم والترقية امامه ، ولا أن يحقق له ما كان ينشد على ضفاف النيل من رغد المستقبل ، وشرف المنصب ، والجاه الذى يكفىء جهد العاملين فى عزم وإقدام . منذ ذلك اليوم ، انخفض نجم پريس فى سماء مصر . نقلوه إلى دمياط استأذا للتحصينات فى مدرسة المشاة . ولكن

همته لم تفتر ، بل راح يستطلع شمالى الدلتا ، لاسيما منطقة بحيرة
المنزلة ، ووضع « مذكرة فى تجفيف بحيرات مصر السفلى وزراعتها »
قدمها كبير الرجاء إلى الوالى ، إلا أنها لم تجد حظوة لدى جنابه العالى ..
ولا نعلم من أمر پريس فى السنوات التالية إلا ما بذل من نفسه للمرضى
والمصابين فى وباء الكوليرا والطاعون اللذين فتكا بمصر عام ١٨٣١
وعام ١٨٣٤ ، فقد نهكه العناية حتى أشرف به على الموت .
هناك خالط الشعب المريض الجائع البائس ، وفهم نفوس المصريين ،
ولمس تحت الأسمال التى القاها عليهم الحاضر الوحش تلك الصفات
الكريمة العريقة التى سجلتها حضارتهم من قديم . وأقبل عليهم فى
شغف ، فتعمق مجتمعهم ، ودرس تفاصيل حياتهم ، واتقن لغتهم . ودعا
الجميع باسمه الذى تحول من « پريس » إلى « إدريس » : « إدريس
أفندى » .

ودفع إدريس أفندى اهتمامه بحضارة هذا الشعب إلى دراسة
الهيروغليفية ، وكان شامپليون قد حل رموزها منذ سنوات قليلة . وملا
حياة المصريين حياتة : فهو يفكر فى ماضيهم كما يفكر فى حاضرهم وفى
مستقبلهم . وما ناله يظل محدودا بواجب ضيق صغير ؟ إن الإنسانية
أعرض من أن يربطها سلك الوظيفة الرسمية . وإنه ليزده فى هندسة الرى
الحكومية وتدریس علم عقیم ، فيقدم استقالته عام ١٨٣٦ . ليفرغ إلى
مآبات يستغرقه من التاريخ لهذا المجتمع الذى يعيش فيه .

* * *

ها هو ذا فى زيه العربى ينتقل بين الفلاحين من قرية إلى قرية ، ومن
الدلتا إلى الصعيد ، ومن الصعيد إلى النوبة . ها هو ذا يقف مبهوراً أمام
بوابة أبى سنبل الرائعة . وها هو ذا فى عام ١٨٣٨ يستقر فى الأقصر ،
موجهاً جهوده إلى دراسة منطقة « طيبة » . أو يستقر حقاً ؟ إنما حياته فى
تلك الأثناء نضال متصل كل يوم ضد عجرة المدير ، وتسلب موظفى
الباشا . واستشراء عصابات اللصوص . ولكنه يحب العراك والكفاح
والعيش فى خطر . عليه إذن أن يحمى نفسه ، ويحمى رجاله . بل ويحمى
تلك الآثار العريقة من معمل البارود الذى أنشاه الباشا بالكرك .

ولم يكن بد من أن يلتحم هو والسلطة الغشوم مرة أخرى ، فى
مارس ١٨٤١ : فقد قبض ناظر الأقصر على واحد من رجاله بغير وجه حق ،

وأمر بضربه بالعصا ، ورفض إطلاق سراحه ، فاحتد « إدريس أفندى » ، وضرب الناظر . وهنا تقوم قيامة الناظر التركي وخفره ، وترك لابن إدريس أفندى إتمام رواية الواقعة ، فهو يقول :

« على الرغم من أنه كان بمفرده ضدهم جميعاً ، فقد أفلح في أن يذود عنه أولئك الذين أخذوا بتلابيبه ، إذ ضربهم في وجوههم بقبضة يده ، ولكنهم تكاثروا عليه بعد ذلك من كل جانب . وحين هوت عليه العصا الأولى أمسك عن استخدام سلاحه . غير أن العصى تتابعت بلا انقطاع ، فبدد وقعها صوت ضميره المتردد ، واندفع شاهراً خنجره على ذلك التعس الذي ضربه في تلك اللحظة ، فجرحه جرحاً بليغاً ، وأصاب اثنين آخرين إصابة أهون . وإذا كان هجم عليه الجميع ، وكبلوه ، وأمر الناظر بحبسه . وبينما هم يكبلونه ، أتى لنجده - بمجرد أن بلغه الأمر - فرنسي سائح كان يقيم عنده أياماً ، هو « الكونت دي فرجين » . فطوقوه في الحال ، وسحبوه من لحيته إلى السجن . حيث وصل دامي الجسم ، هو والخدم الثلاثة الذين كانوا في صحبته ، ثم قيدوهم جميعاً بالسلاسل . »

وفي قاع ذلك السجن المظلم ، ظل إدريس أفندى وضيئه ورجالهما أربعة أيام وأربع ليال ، وسط الأوساخ العفنة التي اختلطت بتراب الأرض . لا يبلغهم نور ولا هواء ، بل لا كسرة من خبز ولا جرعة من ماء ، مشاطرين في هذا كله بلاء نحو من عشرين فلاحاً فقيراً ، لم يكن لهم من ذنب إلا فقرهم الذي لم يختاروه وعجزهم عن دفع الضرائب للبائسا . ولولا توسط الرسام « نستور لوت » ، معاون شامبليون في دراسة الآثار ، وقد أقبل في مهمة رسمية ، ما أفرج عنهم .

ويزعم الأديب الفرنسي ماكسيم دوكان Maxime du Camp الذي زار مصر في ذلك العهد وعرف إدريس أفندى أن إدريس أفندى قد انكسر في هذه الواقعة فكه وإحدى ذراعيه .

ونحن نشك في صدق رواية ماكسيم دوكان ، فهو شخص مشهور في الأدب الفرنسي بنفسية خاصة تنحرف به إلى المبالغة والتهويل وتشويه الحقيقة في سبيل التأثير على القارئ ، ولكن الذي لا شك فيه هو أن إدريس أفندى ظل في الأقصر مرفوع الرأس يواصل أبحاثه بعزمته المعهودة التي لا تنفنى ولا تكل .

وقد أدت أبحاثه في تلك الفترة بين سنة ١٨٣٩ وسنة ١٨٤٣ إلى نتائج يعرف مؤرخو الآثار المصرية أهميتها . فقد يكفيه فضلاً أنه حفظ بعض آثار « طيبة » العريقة من الفناء . وكيف كان ذلك ؟ ذات يوم ، لسد حاجة طرأت على معمل البارود بالكرك ، أقبل العمال يقطعون الأحجار من الأعمدة الضخمة القائمة في جنوب الهيكل الجليل ، أعمدة « حار محب » التي كانت تعرف إذ ذاك باسم « أعمدة حوريس » .

وكان إدريس إندى أول من لاحظ النقوش الممتازة الفريدة المنجوتة عليها من عهد أخناتون ، ووجه إليها بالفعل نظر الرسام نستور لوت .. وهو يكتب (في يناير سنة ١٨٤٠) لعالم الآثار الانجليزي ويلكنسون عما حل بها فيقول :

« كانت الأحجار المستخدمة في ذلك الجزء من العمود ضخمة الحجم ، فلاختصار العمل عمدوا في تكسيروها إلى استعمال البارود . وحين وصلت إلى المكان ، كانوا يتأهبون لإشعال بعض الذبالات . فاستمهلتهم لحظات ريثما أرسم أبا هول منحوتاً على كتلة طولها متران تقريباً وقد غمرته أشعة « اتون رع » . ولم أكد أتم رسمى حتى تطاير الحجر شظايا ؛ ولكن لحسن الحظ بقى رأس ذلك الفرعون المعبر - وإن كان قد تشقق - على قدر من السلامة أتاح لى أن اطبعه على عجينة من الورق استعنت بها بعد ذلك في تذهيب رسمى على مهل » .

وقد يكفيه فضلاً بين علماء الآثار المصرية أنه كشف في معبد « خونسو » اثنتى عشرة غرفة ، وأنه كشف البردية الهيراطيقية التي تحمل اليوم اسم بردية « بريس دافين » . ولكنه لم يقف أعماله في ذلك الميدان عند هذا الحد . بل واصل أبحاثه في شغف ومثابرة دائماً . كان الصعيدى العريق رفاعة الطهطاوى على إثر عودته من بعثته في فرنسا ، حيث أقام خمس سنين أيقظ فيه خلالها حنينه إلى بلده وإطلاعه على أوجه الحضارة الجديدة وعياً وطنياً متاججاً مستنيراً ، قد طالب محمد على بحماية آثار مصر القديمة ، فصدق الوالى على امر صاغه رفاعة ينص على منع التصرف في الآثار . غير أن الوالى في حاجة إلى أحجار لبناء معامل السكر من ناحية ولتموين معامل البارود من ناحية أخرى ، فيفرض على الفلاحين أن يقدموا له عن كل قدان مزروع قنطاراً من الأحجار ، ولا بأس على فلاحى الصعيد من أن يقطعوا له الأحجار من

هذه الأعمدة الضخمة والتماثيل الكثيرة التي تملأ منطقتهم : فتلك أحجار مشدبة أصلح للبناء وأقرب منالاً من بطون الجبال ! بل كان رجال الإدارة فى الحالات العاجلة يسوقون الفلاحين إليها لتكسير ما تحتاج إليه معامل الباشا . ويرتاع لذلك علماء الآثار فى أوروبا ، فيكتب ويكتسبون فى لهفة لإدريس أفندى يسأله « معلومات عن التهديم الذى حدث فى الكرنك » ويرجوه أن يبادر لرسم « إذا لم يكن قد فات الأوان ، أساطير الفراعين القدماء التى يقال إنها تكسو الأحجار المستخدمة فى هذه المعالم » ، ويهرع لبيسيوس على رأس بعثة بروسية كانت قد اجتثت منذ سنوات روائع النقوش والرسوم من جدران مقبرة سيتى الأول بوادى الملوك ونقلتها إلى برلين ، وهو يهرع هذه المرة لينقل « غرفة الملوك » الشهيرة فى الكرنك (من آثار تحوتمس الثالث) ، فيسبقه إدريس أفندى بايام ، ويبدل أعنف الجهد حتى يفصل أحجارها ، ويحملها إلى باريس حيث يحفظها متحف اللوفر .

* * *

ويعود إدريس أفندى إلى مصر عام ١٨٥٨ ، أى فى أثناء ولاية سعيد ، فيجوب البلاد من جديد مسجلاً مشاهداته وملاحظاته ، مصوراً المعالم والآثار بالآلة الفوتوغرافية ، أو راسماً إياها بقلمه والوانه ، أو صانعاً لها قوالب متقنة ، حتى يجتمع له من ذلك كله محصول ثمين من المعلومات الجغرافية والبشرية والتاريخية والفنية واللغوية والاجتماعية ، مادة غزيرة هى التى استمد منها فيما بعد كتبه القيمة عن الآثار المصرية ، وغذى بها الصحف والمجموعات الكثيرة التى راح ينشرها للتعريف بمصر .

وقد وقف إيامه وجهده على هذه المهمة التى غمرته واستغرقتها . عرضت عليه الحكومة الفرنسية منصب السفير فى تركيا ، فاعتذر مؤثراً مواصلة منشوراته ومطبوعاته التى لم تكن لتمنحه مثل جاه السفير ومرتبته . وإنها لتضحية تعرفها له مصر اليوم . وقد أصبحت كتبه عن الفن نادرة جداً ، وفى مقدمتها كتاب « الآثار المصرية » (Les Monuments Egyptiens) الذى يضم خمسين لوحة من الق قطع الكبير ، ويعتبر مكملاً لكتاب شامبليون الذى ظهر عام ١٨٤٥ بعنوان « آثار مصر والنوبة » (Monuments de l'Egypte et de la Nubie . أما « تاريخ الفن المصرى » ،

Histoire de « مأخوذاً عن الآثار ، منذ أقدم العصور إلى الحكم الرومانى »
 l'Art Egyptien d'Après les monuments, depuis les temps les plus
 reculés jusqu' à la domination romaine.
 مجلدين مائة وستين لوحة من القطع الكبير . وله أطلس آخر من مائتي
 لوحة فى ثلاثة أجزاء عنوانه « الفن-العربى » ، مأخوذاً عن آثار القاهرة
 منذ القرن السابع حتى نهاية القرن الثامن عشر .
 (l'Art Arabe, d'après les Monuments du Caire depuis VII^e siècle
 jusqu' à la fin du XVII^e siècle.)

إن دراسة الآثار المصرية والعربية التى كانت تحبو فى ذلك الوقت ،
 مدينة لهذا العالم الفنان بتقدمها خطوات موفقة إلى الامام : فرسوم
 شامپليون وأعوانه كانت رسوماً مجردة ، فاترة ، هندسية ، لا تؤدى
 إلا الخطوط والأبعاد والأحجام ، أما رسوم إدريس أفندى أو پريس دافين
 فقد بعثت الحياة النابضة الملونة فى الماضى السحيق وازدادت إلى
 صوره المعروفة صوراً مجهولة .

ولم يهتم بالآثار العربية قبل إدريس أفندى أو پريس دافين إلا مهندس
 معمارى من أهل مرسيليا سبقه إلى زيارة مصر ويدعى « پاسكال كوست »
 رسم فى دقة موضوعية جافة أيضاً عمارة الفاطميين والأيوبيين
 والمماليك ، ولكن إدريس أفندى أو پريس دافين نظر من بعده إلى
 المساجد والزخرفات والأثاث نظرة إنسانية جلتها فى مظهرها ذلك الأليف
 القريب من نفسه .

وأما مقالات إدريس أفندى أو پريس دافين وأبحاثه الكثيرة فى
 الصحف والمجلات والمجموعات الدورية فيضيق هذا المقام عن
 الإحاطة بها : ففى هذا كله أنفق الرجل حياته . واضطرت زوجته إلى أن
 تباع بعض الانجيلين جزءاً كبيراً من مخطوطاته وأوراقه ورسومه ومكتبته
 التميته ، وهو على فراش الموت لا يدرى ماذا يدور من حوله .

ولعل أهم أوراقه مع ذلك هى التى بقيت فى فرنسا ، والت إلى دار
 الكتب بباريس ، أوراق يضمها اثنا عشر مجلداً ، وتتصل بدراسة مصر من
 مختلف النواحي . وقد استوقفنا بين هذه الأوراق بوجه خاص ثلاثة
 مجلدات ضخمة ، يبلغ كل منها نحو أربعمئة صفحة ، تحوى كثيراً من
 قصاصات الجرائد المعاصرة ، وكثيراً من الصفحات المخطوطة ، وكثيراً

من الرسوم ، وأحدها بعنوان « سياسة مصر الحديثة وإدارتها »
(Politique et administration de l'Egypte moderne) والآخران بعنوان
« أخلاق وعادات » (Moeurs et coutumes) .

ويتضح للنظر في هذه المجموعة الكثيفة التي تتناول وصف مصر
الحديثة ، أنها المادة الأولية التي أعدها إدريس أفندي لإنشاء كتاب جامع
عن مصر كما عرفها . ونحن نجد بالفعل مشروع ذلك الكتاب وخطته في
الصفحات الأولى من أحد هذه المجلدات . وتنبئنا تلك القائمة
للموضوعات بأن المؤلف قد انتوى تصنيف كتاب كبير من عدة أبواب
وفصول :

فالباب الأول عن « القطر » وينقسم إلى فصل عن « المناخ » ، وفصل
عن القاهرة والاسكندرية ، وفصل عن مجرى النيل ، وفصل عنوانه « مصر
كما هي » .

والباب الثاني عن « الناس » ، يفتتحه فصل عن سكان مصر والأجناس
التي اختلطت على هذه الأرض ، يليه فصل عن النساء المصريات ،
ثم فصل عن الرجال وقناعة الشعب ودفع الضريبة بالعصا ، ثم فصل عن
الفلاحين والصناع وفصل عن الأوروبيين في مصر .

والباب الرابع وصف للأسرة والزواج والحياة العائلية .
والباب الخامس عن « الحكومة والإدارة » فيه فصل عن الحكومة ،
أى النظار والموظفين ، وفصل عن التقسيم الإدارى ، وفصل عن العدالة
المفقودة . وفصل عن الجيش والبحرية والتجنيد ، وفصل عن التعليم .
وهناك باب سادس عن الدين ، أى الإسلام والمسيحية .

وباب سابع عن المالية والضرائب وميزانية الإيرادات والمصروفات
والديون التي تورط فيها إسماعيل .

ثم باب أخير عن الوالى ينقسم إلى فصل عن حياته الخاصة ، وفصل
عن حياته العامة وسياسته الخارجية والداخلية .



فى هذا الاستعراض العاجل لعناصر الكتاب الذى أعد مادته إدريس
أفندي ولم يفرغه فى قلبه الأخير ما يصور لنا مدى غزارة ما تحويه تلك
الأوراق الشعثاء . وقد اخترنا من بين تلك الأوراق المخطوطة صفحات
طريقة عن المجتمع المصرى وولاة مصر فى القرن الماضى . صفحات

مطوية لم يتح لها أن تنشر حتى اليوم لأسباب كثيرة لعل في مقدمتها تلك الصراحة التي تحدث فيها إدريس أفندى عن أسرة محمد على ، وتلك الجرأة في إذاعة أسرار القصور العامرة بألوان المجون والحماقة والسرف .

ومن هنا كانت مذكرات إدريس أفندى تختلف عن كتب المؤرخين الرسميين ، بل تعارضها في أغلب الأحيان . ولقد كان هذا الرجل الحر المستقل يعي ما تؤدي إليه مدائح الأقلام المرتزقة من تشويه الحقيقة في التاريخ ، ولذلك توخى دائماً ذكر الوقائع ، ووصف العصر والقصر وصف شاهد عيان .

ولكل شاهد عيان موضع خاص يقف فيه ليرصد الأحداث والأشخاص والأشياء . وقد رأينا كيف تنقل إدريس أفندى سبعة عشر عاماً في مصر من أقصاها إلى أقصاها ، ومن بيئة « الباشوات » الحاكمين إلى بيئة الشعب المحكوم .

كيف عرف أهل القصور والدواوين من ناحية ، وكيف عاش بين أهل الدلتا والصعيد من ناحية أخرى ، ناظراً هنا وهناك ببصيرة البحاث الناقد ، مشاطراً أهل الوادى حياتهم ، مصطدماً بالسلطة الغشوم كلما مست حريته واستقلاله وكرامته . نظرته إذن هي نظرة الدارس الممخص ، والايخ العاطف على إخوة له في الإنسانية جار عليهم الدهر ، والرجل الواقف بالمرصاد لردائل السلطان المستبد .

ولهذا كله كانت مذكرات إدريس أفندى وثيقة تاريخية قيمة للمهتمين بحياة مصر الحديثة . وهي إن لم تكن تاريخاً كاملاً لقرننا التاسع عشر ، فإنها تدعونا إلى إعادة النظر فيه وكتابته بأقلام واعية محققة مخلصه للعلم وللوطن ، لا كما كتبته أقلام ناعمة معطرة لحساب أسرة أجنبية عاثت في بلادنا فساداً ، وضيعت حقوقنا بين دول العالم ، وسخرت أباءنا سخرة العبيد .

وفي مذكرات إدريس أفندى - فضلاً عن قيمتها التاريخية - طلاوة القصة ، ودقة الملاحظة ، وصدق التصوير والألوان ، وشجون الحديث والالفة والخبرة والثقافة ، وسعة الأفق الإنساني ، وإحساس مرهف بالحياة الكامنة في تفاصيل مجتمعنا المصري ، وفهم عميق لروحنا القومية الأصيل الذي نحى اليوم بعثه ، وانطلاقة من إساره ، وتوثبه إلى أفق الحرية والكرامة الموفورة .

وإذا اجتمعت هذه الصفات أو شيء منها في أوراق مخطوطة مطوية
مهملة ، كان ذلك خليقا بأن يخرجها إلى النور .
لقد أنصف إدريس أفندى مصر ، فمن حقه عليها أن تنصفه .



- نشرت صفحات من هذا الكتاب في مقالات الدكتور انور لوقا التالية :
- « إدريس أفندى مؤرخ اهمله التاريخ » . المجلة ، عدد ١٥ مارس ١٩٥٨ .
ص ٤٧ - ٥٩ .
 - « إدريس أفندى وظالم باشا » . الهلال ، عدد ١١/٦٦ ، نوفمبر ١٩٥٨ ، ص ٦ - ١٥ .
 - « من مذكرات إدريس أفندى : محمد على وأسرته صفحات مجهولة » . المجلة ،
عدد ٩٣ ، سبتمبر ١٩٦٤ ، ص ١٢ - ٢٦ .



دار مصرية من الداخل - لوحة
منشورة في كتاب إدريس أفندي - الفن العربي

تقديم :

إدريس أفندى وظالم باشا

« إدريس أفندى » مستشرق فرنسى يكاد يكون مجهولا من الكثيرين ، برغم مواقفه المجيدة وكتاباته الجريئة وفنه البارع ، بل لعله ظل مغمورا لأنه أنفق حياته فى البحث عن فنون حضارتنا العريقة ! ولد عام ١٨٠٧ ، فى مقاطعة الفلاندر بفرنسا . ولم يسمه أبوه « إدريس » إذ كان من أسرة انجليزية الأصل هاجرت إلى فرنسا فرارا من جور الملك « شارل الثانى » ، بل عرف باسم « بريس دافين » Prisse d'Avennes وهو تحريف فرنسى للاسم الانجليزى Price of Aven وكان أبوه مفتشا المغايات التى يملكها الأمير تاليران . وحين أصيب جنود نابليون الذين دوخوا أوربا ، بالتيفود عام ١٨١٤ ، تطوع الأب لتمرير إحدى الفرق ، فقصت عليه العدوى .

* * *

وفى عام ١٨٢٢ دخل : بريس مدرسة الفنون والصنائع بمدينة « شالون » ، وتخرج فى التاسعة عشرة من عمره مهندسا معماريا . وكانت مغامرات نابليون قد غيرت مفهوم الحدود الجغرافية فى مخيلات الشباب ، فدفع الطموح صاحبنا إلى الانخراط فى صفوف ثوار اليونان الذين نهضوا ينتزعون استقلالهم من جيوش السلطان وإبراهيم باشا .

* * *

ثم أبحر إلى الهند حيث عمل سكرتيرا لحاكمها العام . وعاد بعد ذلك بقليل إلى فلسطين . وهناك بلغه أن « محمد علي » فى حاجة إلى أخصائيين أوروبيين لتنظيم الجيش والمدارس وتنفيذ مشروعات الري والزراعة ، فالتحق بخدمة الباشا عام ١٨٢٩ ، مهندسا للرى فى اول الأمر ، ثم أستاذًا للطبوغرافية فى مدرسة أركان الحرب بالخانكة ، وفى الوقت نفسه مربيا لأبناء إبراهيم .

ولكنه لم يلبث ، لاعتداده بنفسه ، ولشدة ابائه وشممه ، أن اصطدم بناظر المدرسة التركى المتغطرس « عبد الله بك » . وبعد ملحمة عنيفة هوى فيها الكبراج على جسمه ، فأبرز خنجره ومسدسه متحديا القوة بالقوة ، قدم استقالته ، فنقله ناظر الحربية إلى دمياط ، أستاذًا للتحصينات فى مدرسة المشاة . وفكت بمصر عام ١٨٣١ وعام ١٨٣٤ أوبئة الكوليرا والطاعون ، فانبهرى « بريس » لتمرير المصابين وصارع الموت الذى أوشك أن يصرفه .

واغنت تلك التضحية نفس الرجل الكريم .. لقد عاشر شعبا مريضا جائعا بائسا ، وهو بعينه هذا الشعب الذى صنع الحضارة منذ فجر البشرية . وأحب « بريس » المصريين ، وفهم مشاكلهم ، وميز جوهر صفاتهم تحت الأسمال التى ألحها عليهم الحاضر المظلم ، وتعمق مجتمعهم ، وتامل تفاصيل حياتهم ، وتكلم لغتهم ، واهتم بأمسهم ، وانغمز فى هذا كله حتى ضاقت على إنسانيته المتفتحة حدود الوظيفة الصغيرة . فاستقال عام ١٨٣٦ ، وتحرر من القيود الرسمية ، وتفرغ لدراسة الهيروغليفية ليجتلى تاريخ هذا المجتمع الذى يعيش فيه ، وكيف تطور من حال إلى حال .

وارتدى الزى الشرقى ، وسمى نفسه « إدريس » بدلا من « بريس » وجاب قرى مصر منتقلا من الدلتا إلى الصعيد ، بين الفلاحين الذين يأنسون إليه ويلقبونه بـ « إدريس أفندى » . وبعد زيارة « لأبى سنبل » أقام فى الأقصر لدراسة « طيبة » ، ولحماية

ما أمكن من أعمدة الكرنك التى أقبل عمال الباشا يكسرونها لتغذية
معمل البارود . ولم يكن بد - وهو رجل شديد العريكة حريص على
كرامته دائما - من أن يصطدم مرة أخرى ، بناظر الأقصر التركى
وخفره .

لقد أدت أبحاث « إدريس أفندى » فى التاريخ المصرى القديم
وفى تاريخ العمارة العربية إلى نتائج كبيرة يعرف المختصون
أهميتها ، ودورها فى تقديم تلك الدراسات . وإذا لم يتسع المقام هنا
لعرضها ، فحسبنا أن نشير إلى « الألبومات » الضخمة الثمينة التى
سجل فيها الفنان بالرسوم الدقيقة والألوان المتقنة روائع الفن
المصرى خلال مختلف العصور . وجمع « إدريس أفندى » طوال
السبعة عشر عاما التى أنفقها على ضفاف النيل - وكان قد سافر إلى
باريس أثناء حكم عباس وعاد بعد تولى سعيد - مادة غزيرة عن
مصر الحديثة ، استمد منها المقالات التى راح ينشرها فى الصحف
والمجموعات العلمية ، مؤثرا مواصلة منشوراته ومطبوعاته على
منصب سفير فرنسا فى تركيا ، الذى يقال أن حكومة نابليون الثالث
عرضته عليه . وحينما اشتد عليه المرض فى فرنسا عام ١٨٧٩ .
اضطرت زوجته إلى أن تباع لبعض الانجليز جانبا من مخطوطاته
وأوراقه ورسومه ومجلدات مكتبته النادرة .

* * *

على أن أهم أوراقه بلا شك هى التى بقيت فى فرنسا ، وألت إلى
قسم المخطوطات بدار الكتب بباريس . هناك اثنا عشر مجلدا خلفها
« بريس دافين » ، تتناول دراسة مصر من مختلف النواحي . وقد
طلعت بين هذه الأوراق بوجه خاص ثلاثة مجلدات ، يحوى كل منها
نحو أربعمئة صفحة ، وتضم خليطا من الرسوم والمذكرات
المخطوطة وقصاصات الجرائد المعاصرة ، ويحمل أحدها عنوان
« سياسة مصر الحديثة وإدارتها » والآخر عنوان « عادات
وأخلاق » . ويتضح للناظر فى هذه المجموعة الشعثاء انها المادة

الأولية التي أعدها « إدريس أفندى » لإنشاء كتاب مفصل عن مصر كما عرفها ، ولكن الأيام لم تمهله حتى يفرغه في قلبه الأخير . ولن نناقش هنا فكرة هذا الكتاب الضخم الذى لم يكتبه صاحبه وحسبنا أن نعى ما سجله هذا الرجل الحر المستقل من أسرار الولاة الذين عاصروهم وعاشروهم ، فقد اتصل بهم - من محمد على إلى إسماعيل - ووصف أساليب حكمهم وخفايا حياتهم وصف شاهد عيان .

ويتميز حكم « محمد على » فى مذكرات « إدريس أفندى » بطابع القسوة والظلم والإرهاب . فإن منظر تعذيب أفراد الشعب تعذيبا رسميا منظما كان يتكرر فى كل يوم ، فى كل قرية ، وفى كل مدينة ، بل وفى أسواق القاهرة . وقد صور « إدريس أفندى » موكب « المحتسب » وعدالته الهمجية فى هذه السطور :

« يطوف المحتسب ، وهو الأغا المكلف بالإشراف على الأسواق ، بالمدينة على صهوة جواده ، يتقدمه « القواسون » حاملين ميزانا ضخما ، ويكتنفه ويتبعه منفذو أحكامه وخدم عديدون مسلحون « بالكرابيج » أو بالعصى الكبيرة ، فيستعرض الموازين ، وأثقال الوزن التى يستخدمها الباعة ، ممتحنا من يختاره أو تختاره المصادفة . وقد يستجوب الخدم الذين اشتروا شيئا من المواد الغذائية ، ليعلم الثمن الذى دفعوه ، والوزن الذى أعطى لهم ، ومن أى بائع كان ذلك ، ثم يأمر بأن توزن أمامه المواد ، فإذا اتضح غش فى الوزن أو غلاء فى الثمن ، استقدم التاجر وأمر بضربه بالعصا فى الحال . فيقبض خدمه على المطفف ، ويطرحونه أرضا ويشدون ساقيه فى « الفلقة » ، ثم يوقع على بطن قدميه عدة منفذين مسلحين بالكرابيج مائتى أو ثلاثمائة ضربة يعدها الأغا فى هدوء على حبات مسبحته الوردية . ويسأل المحكوم عليه العفو ، متوسلا بالنبى . ثم بالأغا ، ثم بأولاده وهم أعز مالهديه . وفى نهاية الأمر ، لا يستطيع التاجر التعس ، وقد تمزقت قدماه ، أن يعود إلى دكانه

إلا محمولاً أو متوكلاً على أذرع بعض أصدقائه أو بعض المتفرجين .. وتلك عدالة سريعة ناجزة ، ولكن لها عيوبها ، وتوقيع العقاب فى أكثر الأحيان يوحى التحيز . فإن لم يستغل الأغا سلطته المستبدة فى ابتزاز الأموال أو اغتنام السلع ، فإن قواسيه وخدمه يفعلون ذلك فى أغلب الأحيان .

ويتحدث عن تعذيب الفلاح ، فيقول :

« ان الفلاح المصرى ، وقد أبهظته الضرائب ، أصبح فريسة ضغط جميع موظفى الوالى ، من أعلامهم إلى أدناهم . فإذا كان الفلاح يملك قروشاً ، طمع فيها هذا أو ذاك من طبقة المتسلطين عليه ، وأجبروه على دفعها ، فإذا قاوم كان جزاؤه الكرباج أو السجن . ولا يستطيع أى إجراء أن يقلته من العقاب البدنى ، فهو عقاب مباشر ، وكل ما يستطيع أن يناله من تخفيف لا يتجاوز تقليل عدد الضربات التى توقع عليه . »



ثورة الصعيد

ويقول « إدريس أفندى » ان الفلاحين أطلقوا على محمد على لقب « ظالم باشا » لفرط ما نالهم من التعذيب على أيدي مأموريه ، فمن الكى بالقرميد الأحمر المحمى فى النار إلى تسمير أذانهم ، إلى تمزيق أجسامهم بضرب الكرباج . ويروى ثورة أهل الصعيد التى أدت إليها تلك

القسوة : بدأت هذه الثورة على الوالى ورجاله فى بلدة « دراو » فى أوائل عام ١٨٢٤ . وكانت إحدى فرق الجيش فى طريقها إذ ذاك إلى « سنار » فانضمت إلى الفلاحين . وبلغ عدد الثائرين نحو عشرين الفا . غير أنهم تشتتوا بعد بضع معارك لعدم تنظيم صفوفهم تحت إمرة قائد خبير .

وكان نزق الباشا وخدمه هو مصدر الظلم أحيانا . وإدريس يورد لنا هذا المثل على استبداد يشتط إلى حد عجيب :

« من بين النباتات النادرة التي وردت لمحمد علي من أوروبا ، كان غرس لزهرة الداليا . غرست تلك النبتة في قلب الأرض ، في موضع تغمره أشعة الشمس الساطعة بعيدا عن كشك الباشا الأثير ، فازهرت واينعت ، دون أن يتنبه السيد إليها . غير أن اجنبيا تحدث يوما عن جمال تلك الزهرة ، فلاحظ محمد علي للمرة الأولى أنها جميلة ، وأمر بأن توضع النبتة في صندوق ، وتنقل تحت شجرة الجميز التي تظلل كشكه . وهنا اجترا البستاني على الاعتراض بأن الزهرة قد تموت من هذه العملية ، فقطب الوالى جبينه واقسم أن يدفن حيا ذلك الأرعن الذى تذوى على يديه هذه الزهرة التى استأثرت فجأة بإعجابه . وفى اليوم التالى كانت الداليا موضوعة بعناية فى صندوق عريض فى ظل الجميزة . ولكن الزهرة ، وقد اعتراها الذبول كانت قد أخذت تميل مقراخية على ساقها الطويلة . فجاء بالبستاني ، وطرح أرضا ، وعلى الرغم من احتجاجه نالته ضربات عديدة بالسوط . فلما لم يسكت عن ترديد قوله بأن النبات لا يمكن أن يطيع الأوامر كما يطيعها الناس ، أخلى طرفه . »



ظالم باشا

ويتحدث إدريس أفندى عن مكان القانون فى دولة محمد على ، فيقول :

« اننا نتورط فى الخطأ إذا قلنا ان فى ذهن الباشا افكارا منطقية عن العدالة وأن فى قلبه حبا حقيقيا لها ، فالقانون الذى اذاعه محمد على ، والذى اطنب المظنبون فى الإشادة بحكمته وتمشيه مع روح الحرية ، لم يوضع يوما موضع التنفيذ . ويدعو الفلاحون محمد على باسم « ظالم باشا » . ولقد كانت تلك تضحية من ظالم باشا بصيته ، نزولا على مقتضيات مدح المادحين الذين حثوه على اتخاذه . ولذا سرعان ما أهمل القانون بعد تشريعه . وإذا كانت بعض اتجاهاته قد طبقت ، فإن ذلك لم يكن إلا فى مناسبات نادرة ، فى الأحوال التى لم تكن فيها مصالح الباشا المباشرة أو غير المباشرة تقع تحت طائلة نصوصه » .

ويستطرد إدريس أفندى قائلا : « ودون ان نستعرض تلك السلسلة من أعمال الطغيان التى عادت عليه بذلك اللقب ، حسينا ان نلاحظ ان روح محمد على فى فرض الضرائب والنهب وعدم النزاهة فى ابتزاز المال روح لا نظير لها . انه لا يود ان يدفع مرتبات لأحد ، لا للجيش ولا للموظفين ولا للعمال ، ويود ان يدبر امره بحيث يخدمه الجميع مجانا ما استطاع إلى ذلك سبيلا . فالضباط المدنيون والحربيون ، والجنود والعمال يلاقون اشد العناء فى تحصيل مرتباتهم واجورهم ، وقلما يقبضونها نقودا ، بل يجدون انفسهم مرغمين فى أكثر الأحيان على ان يقبلوها سلعا خارجة من مصانع الباشا ، مرغمين بعد ذلك - للحصول على نقود - على ان يبيعوا بثمن بخس السلع التى حسبها عليهم الباشا بثمن باهظ » .

« ويكفى ذكر هذا المثل الملحوظ بين جميع ما تفتقت عنه حيلة محمد على فى سبيل الخوال دون أن يفتح كيسه ، وانه ليدل على خصب قريحته فى التلفيقات المالية : فبعد أن أخذ الأوروبيون عكا ، رأى إبراهيم باشا تعذر الاحتفاظ بسورية إلى أبعد من ذلك الأمد ، فأرسل الأمر إلى جميع القوات بأن تنسحب نحو مصر ، وأن تدمر قبل رحيلها جميع ما يمكن أن يستخدم ضدها . وهكذا هدمت الحصون ومعامل البارود وأحرقت الخيام ، وكسرت المدافع ، ودمرت العتاد الذى كانت قد زودت به ، بل لقد ذهبوا إلى حد تكسير البنادق والسيوف التى يموت حاملوها من الجنود ، وعندما وصلت القوات إلى القاهرة قدرت جميع الخسائر التى أسفر عنه هذا الإجراء الذى نفذه المرءوسون صاعدين بأمر رؤسائهم تقديرا دقيقا ، وظهر أن قيمتها تعادل حصيلة مرتبات فرق الجيش لمدة ستة أشهر ، وأراد الباشا خصم هذا المبلغ من مرتبات أولئك الرجال الذين قاسوا كل عناء ومشقة ، ولم يكن بد من أن يحتج سليمان باشا بشدة حتى يحول محمد على عن رأيه العنيد ويقنعه بالعدول عن ذلك القرار الغريب » .

لقد رأى إدريس أفندى فى وضوح أن « وضع واحترام النظم التى تكفل حماية الضعيف والمظلوم شيء يتناقض مع تلك الميول » ، ورأى محمد على يستوحى المثل القائل : « انما الشعب كالسمسم ، ينبغى أن تسحقه لكى تخرج منه الزيت » . ويعود إلى رثاء المصريين فى صفحة أخرى :-

« أما المصريون ، شهداء الدولة ، فهم الألعبوبة الدائمة فى أيدي رجال الإدارة ، أصحاب الأمر والنهى ، والتصرف فى قوم جهلة لا نصير لهم ولا خوف من شكواهم وتذمرهم . وهكذا يغش رجال الإدارة الزارع عند تقدير كمية ما تغل أرضه ، بموازين ومكاييل زائفة . وإذا حل أوان البيع قيل للفلاح دائما انه لم يجن إلا قطنا رديء المصنف من الدرجة الثالثة . وفوق ذلك ، يستطيع عدد غفير

من الموظفين أن يطالبوه مرارا بدفع مبالغ من المال فإذا امتنع كان جزاؤه الضرب بالعصا وإذا أذعن ودفع فوراء الكرباج أيضا لإرغامه على دفع مبالغ أكبر . وهم يأخذون الفلاح في السخرة ، وبدلا من أن يدفعوا له أجره يقولون له أن قريته مدينة للحكومة ، وتلك شريعة التضامن ! .. وإذا ازداد رخاء المحصول في عام ، ازداد رؤس المصريين لأن محمد على يقوم إذ ذاك بعمليات أوسع . فمثلا في سنة ١٨٢٩ كان الشعب يموت من الجوع بينما كانت جبال من الغلال تحت امرة الباشا دون أن يكون للمصريين التسعين الإذن ولو بشراء شيء منها .

وينتهى "إدريس أفندي" إلى أنه لا شك أن « محمد على » رجل قد ، ولكن هل كان غرضه حقا هو سعادة مصر ومجدها « من الخطأ أن يقال أن مصر قد تمدنت ، فهي لا يمكن أن تتمتع فجأة بهذه الصورة . إنما المدنية محصول سلسلة من العمليات المتتالية ، ولا يمكن أن تأتي ارتجالا في ربع قرن ، وإذا لم ننظر إلا للنتائج في تقدير الأمور ، فإن المدنية تنتج رخاء مازالت مصر للأسف بعيدة من أن تحظى به .

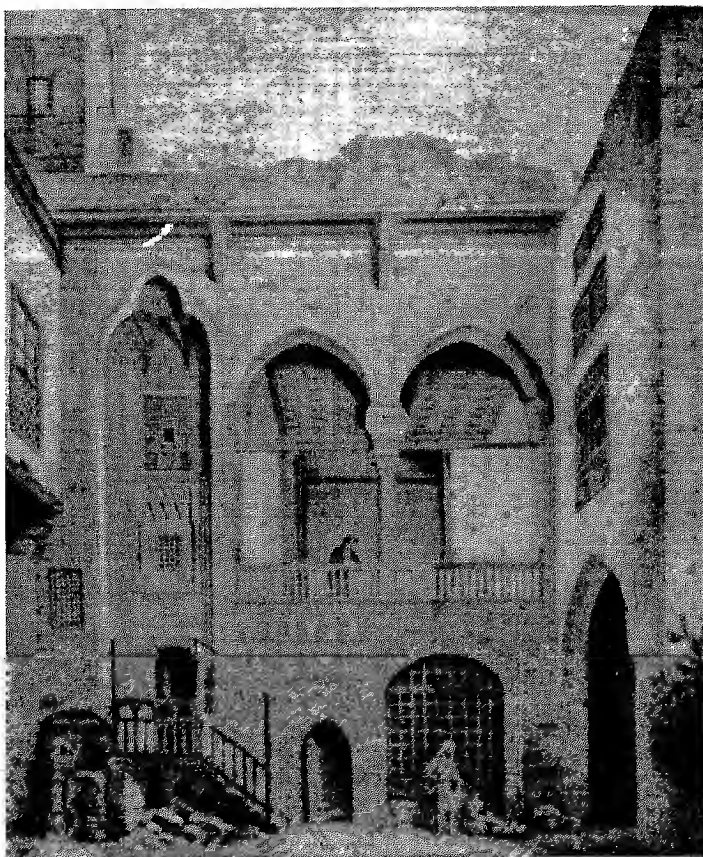
لم يعرف محمد على في حياته أى تربية أولية ، فورطه في الخطأ اتخاذه من نفسه مثلا ، واتباعه غريزة السيطرة . بداله أنه مستطيع أن يصنع العلماء كما جند الجنود بمجرد قوة إرادته ، على حين أنه لو تمشى مع طبيعة الأشياء لاستطاع - وكان ذلك أقصى ما يبلغه - أن يعد لأمته من بعده ، بمعاونة الأساليب الخاصة لكل فرع من الفروع ، فئة متخصصة من الشعب قادرة على أن تفهم النظريات وعلى أن تحاول تحقيقها . ولكنه لا يمكن أن يصنع أطباء ومهندسين من شبان لم يكتسبوا المعارف العديدة المجردة ، والاستعدادات الملائمة التي ينقلها إلى نفس المرء تعليم تهميدى ينمى ملكات الصبا ، تلك الذخيرة التي لا بد منها لطالب الدراسات العليا .

لقد قنع محمد على بأنه جعل الصحف الأوربية تضج باسمه ،
 وأنه أخضع الشعوب المحيطة به وأرهب السلطان في اسطنبول .
 وان الناظر إلى جميع الأعمال التي زخرت بها حياته ليرى واليا
 متلهفا إلى المجد لا مشرعا يضع أساس الرخاء الذى ينبغى أن
 يسود من بعده ، ولا مجددا يسعى إلى إقامة العدل وتشكيل
 مواطنين صالحين لأعمال السلم من ناحية ، مدربين على أساليب
 الدفاع من ناحية أخرى ، ولا وطنيا يبث حب الوطن فى نفوس
 الشعب ويشعرهم بأن بلادهم عزيزة عليهم . هو يعمل دون أن يكون
 مستقبل الشعب هدفا له . وحكومته حكومة فردية لا تستمد قوتها
 وهيبتها إلا من شخصه » .

فهل سعدت مصر بعد زوال حكم محمد على ؟ لقد تعقب إدريس
 أفندى خلفاءه على عرش مصر . عرف إبراهيم باشا معرفة مباشرة ،
 ووصف لنا همجيته وشراسته ، وأورد من الوقائع الثابتة ، المؤرخة
 ما يدحض آيات المديح التى ردها المؤرخون الرسميون . ثم تحدث
 إدريس عن سياسة عباس الغربية ، وعن مبادئ سعيد وإسماعيل .
 ان مذكرات « إدريس أفندى » إذن وثيقة خطيرة ، لا بد من
 الرجوع إليها لتصحيح تاريخنا الحديث .. ولقد جمعت - فضلا عن
 سجل سرى لخفايا أسرة « ظالم باشا » - صفات فنية وإنسانية
 هيات أن تجتمع لدى كاتب واحد . ففيها طلاوة القصة ، وبراعة
 التصوير ، وغزارة الثقافة ، ومشاركة وجدانية عميقة لحياة
 أجدادنا ، وهى حياة كادت تنسينا واقعها كتب أطنبت فى تمجيد
 الولاة وأغفلت وجود الشعب . لقد حان لجيلنا المتحرر أن يسمع
 لهذا المؤرخ النائر .

■ الجزء الأول ■

صور من المجتمع المصري في القرن التاسع عشر



فناء بيت مصري في القرن التاسع عشر
نقلا عن كتاب (الفن العربي) المجلد الأول

القاهرة

لا أعرف مدينة تتقابل فيها الأضواء تقابلاً أروع منه
 فى القاهرة . فإن السائر فى الشوارع الضيقة بتلك
 المدينة التى تنتشر فيها رائحة القرون الوسطى ،
 يروعه فى كل لحظة مشهد الترف المسرف إلى جانب
 الفقر المدقع . وتتصادم فى القاهرة البهجة والآلام
 دائماً ، فكثيراً ما رأيت موكب عروس تتقدمه جوقة
 الموسيقيين يلتقى بموكب جنازى دون أن يقطع الموسيقيون عزفهم
 ودون أن يقطع المشعرون لعبهم ، بل ورأيت فى كل مرة تقريباً أعضاء
 الموكبين يتبادلون الحديث فى لغة الإخوة والأخوات .
 ولا يقل عن ذلك روعة ما تلاحظ من تباين بين الأجناس التى تضطرب
 فى تلك الشوارع المزدهمة . فهناك يرى المرء جميع أركان الأرض ممثلة ،
 الأبيض ذا الشعر الأشقر والعينين الزرقاوين ، والزنجى المنخفض
 الجبهة الغليظ الشفتين ، والعربى والتركى والشركسى والهندي
 والحبشى . كل أولئك يختلطون ويغزاهمون بالمناكب ، ويتكلمون لغات
 برج بابل .



مناظر من الأسواق

فى كثير من الاحيان ، عندما اخرج لقضاء امورى .
ادخل قهوة وهناك أتسلى بتأمل المشاهد المتنوعة
التي تجرى . أمام أنظارى . أحب أن تحيطنى
التموجات الخفيفة التي ينشرها « تمباك » نارجيلتى
او غليونى الطويل ذى المبسم العنبرى . والدخان
هنا لا يثير سيلان اللعاب المنقر الذى يجعله كريها
فى أوربا ، بل يجد المرء لهذا الدخان - وقد أصبح رقيقا جدا لمسيره فى
أنبوبة طويلة ، أو لأنه قد تنقى فى الماء - طعما يبحث عنه دون جدوى
فى كل مكان آخر . وإنه ليبقيه وقتا طويلا فى فمه ثم يطرده قليلا قليلا
وهو يتذوق عذوبة تبغ « صور » أو « اللاذقية » أو هذه الانواع المكيفة
الأخرى التي تتقنن فيها الشعوب الشرقية .

أجلس وفى يدى غليونى ، وفى الأخرى فنجان القهوة ، وألاحظ اللوحة
الحية ، الصاخبة ، المتنوعة دائماً ، يقدمها لى الجمهور الذى يتجمع
ويضغط بعضه بعضاً فى هذه الشوارع الضيقة التي تحيطها الدكاكين من
كل جانب . ولا تظن أن التجارة والاهتمام بقضاء الأعمال هما اللذان
يجمعان فى شارع من شوارع القاهرة هذا الجمهور الكبير ، بل إن ذلك
يرجع قبل كل شئ إلى عدم الاتصال بين الأحياء الرئيسية حيث يتألف
نصف مجموع الشوارع من ممرات مسودة .

وكثيراً ما تسد هذه الشوارع الضيقة قوافل جرارة من الجمال المحملة
تضطر المارة إلى أن يقفوا لكي يفسحوا لها مكاناً . وهى - بمشيتها
الكسلى وأقدامها العريضة ورقابها التي تنحني تارة نحو الأرض ، وترتفع
تارة أخرى ، بينما تتأرجح عليها من جانب إلى جانب رعوسها التي تنظر
فى توان إلى ما يحيط بها - مشهد بالغ الطرافة .

ها هو ذا الكاتب القبطى ، المتواضع ، تحت عمامة سوداء كثيرة
الثنيات ، والدواة مغمدة فى طيات حزامه كالخنجر ، يمر هادئاً على ظهر
حماره قاصداً ديوانه .

والإلبانى يختال فى مشيته ، مرسلًا نظرات ماكرة شرسة ، وهو يدور
محتالاً فى هذه الأسواق المديدة . إن إزاره الأبيض ، وأردانه الطويلة وقد
شمرها إلى كتفيه ، وسترته التي يكسوها تطريز منطفيء اللون ، وخنجره

المستطيل ، وغدارته المسرفة في الزخرف ، ومعطفه ذا القلنسوة الموشحة بجميع الألوان - كل هذا يؤلف اطراف الازياء .

وتقبل أيضاً لتنوع المشهد نسوة محجبات الوجوه ، مختلفيات في اردية فضفاضة ، يحملن على اكتافهن اطفالا تكسوهم التمام ، او على رعوسهن إناء جميلا . أما نسوة الطبقة الغنية ، فتراهن محجبات من الرأس إلى القدم بأردية طويلة من الحرير الأسود ، وقد ركن حميراً اسرجت بسجاجيد نفيسة يرعاها السواس من كل جانب ، ويتقدمها الخصيان ، ذاهبات إلى الحمام او إلى اداء زيارة .

والعربي - الفخور باستقلاله ، متدثراً بمعطفه الأبيض الفضفاض ، وقد شد بندقيته الطويلة إلى حمالة حول كتفه وصدره ، وامطى صهوة فرسه - يأتي ليقدم ثمرة خدماته مقابل لوازم الحياة الاولى .

والدرويش المعروف بمجونه ، وقد كست راسه طاقية من اللباد الرمادي ، ونزل شعره حلقات على قفاه ، يقبل عليك ليضايك ببركاته . والمملوك المتباهى بعبوديته ، الأبيض البشرة ، وإلى احد جنبه سيف مقوس وإلى جنبه الآخر حمالة الرصاص ، يطوف في خمول بممرات السوق .

وإذا تقابل عربيان كانا لم يلتقيا منذ امد بعيد ، اخذ كل منهما يد صاحبه ست مرات أو ثمانى ، وقبل كل منهما يده ثم وضعها على قلبه مرددا « كيف حالك ؟ » .

وهناك الاولياء ، نوع من المجانين مباح لهم كل شيء ويبدى نحوهم السذج احتراماً دينياً . إنهم أشخاص يتكلفون التقوى ، رجال قديسون نصف عراة ، يتركون مكشوقاً ما يدفعنا في العادة شهوة مفهومة إلى أن نستره ، تجدهم جالسين في الأركان أو يتفلون في الشمس . وكثيراً ما رايت نسوة تقيات متدينات يقتربن من هؤلاء الاولياء البرص ويقبلن ايديهم المنفرة .

ويمر بك الحلاق فتعرفه بتلك العصا الطويلة من الجلد التي تتدلى من حزامه وعليها يقلب سلاحه ، وبهذا الطست النحاسي المبيض بالقصدير يتأبطه تحت ذراعه ، وبهذا الخرج وتلك المرأة المحلاة بقطع من الصدف .

ويمر بك مكفوفون يقودهم غلمان صغار ، وحمير محملة بالشمام
أو البطيخ ، وبرص ، وكلاب ضالة ، وباعة متجولون ، ثم متسولون
مصابون بأورام ضخمة أو بداء الفيل البشع ، وصناع يحملون أثقالا ،
أو يدقون القهوة فى هاون بقطعة غليظة من الخشب مزودة بكتلة كروية
لتكون أشد وقعا . وتختلط صيحات السواس التى لا تنقطع « أوع رجلك !
ضهرك ! عندك ! » ونداء الباعة ، وعواء الكلاب الضارية وقد وطئت أقدام
الحياد والحمير والبغال المحملة بالقرب ، وولولة النساء الحزينات
وإنشاد المؤذنين يدعون المؤمنين للصلاة .

وفى غمار هذه المعمرة ، كثيرا ما تشهد مرور موكب عظيم قد احتشد
فيه رجال يرتلون بصوت مرتفع آيات من القرآن ، تصاحبهم أصوات ناشرة
من الطبول والمزامير والأبواق الصفحية التى تبعث أقصى ما تستطيع
أن تتخيله من صوت ثاقب ، تطلقها جميعا لتحزن إعجابك جوقه من
الموسيقيين على ظهور الحمير أو الجياد دون أن تبالى بتوافق الانغام ،
يتبعها هودج مزين بهرج من « القتر » يحوى بعض أثار الشخصية التى
يحتفلون بعيدها ، ثم عدد من المبلخر ، وشيوخ يحملون رايات من جميع
الأشكال والألوان ، ثم موكب جرار من الأتقياء والمكفوفين الذين يتبعون .
فإذا أضفت إلى هذا الهرج زركشة الأزياء .. تكونت لديك فكرة عن تلك
المسارات .

ولكن كل هذا الصخب وهذا الازدحام لن يعطيك إلا صورة ضعيفة جدا
من اللوحة التى تقدمها إليك أسواق القاهرة ، حيث يختلط القبطى
والعربى والسورى والتركى وزنج سنار ودارفور والمغربى والحبشى
والفارسي والهندي واليوناني والأوروبى ، ويضطربون ، ويدافعون
بالمناكب للأغراض نفسها .

على أن المنظر فى داخل القهوة حيث تنشر الأقداح وأوراق اللاذقية
بخارها أو دخانها بلا انقطاع . منظر بالغ الطرافة أيضا . هناك من
أبهظتهم البطالة أو أسباب العدم فاتوا بمظهرهم الجليل يلتمسون فى هذا
المكان الصحو من سبات وجودهم ، وفلاحون مساكين يتناسون شقاءهم
باحتمساء القهوة العربية فى تلوذ . لقد أمسك كل منهم « الجوزة » فى يده ،
وقبع هؤلاء أو رقدوا على الأريكة ، منهمكين فى لعب المنجلة أو الطاولة
أو الشطرنج ، واجتمع أولئك حول متسول ورع يليهم برواية أقصوصة
ماجنة ، إذ قلما يضحكون لشيء آخر .

ويقص الراوى فى جلالة تلك الحكايات العجيبة ، سهرات ألف ليلة وليلة ، التى يقاطعها جمهور المستمعين بين لحظة وأخرى بصيحات التعجب : « الله ! عجائب ! والله شيطان ! » ، على حين قد أخذ آخرون فى الغناء ، وقعد غيرهم على السجاجيد يسبحون بمسابحهم .



رسم إديس أفندى صورة « العوالم »
وبحث عن تاريخهن بحثاً واقعياً

عدالة المحتسب

المحتسب - وهو « الأغا » المكلف بالإشراف على الأسواق - يطوف في المدينة على صهوة جواده . يتقدمه « القواسون » حاملين ميزانا ضخما ، ويكتنفه ويتبعه منفذو أحكامه وخدم عديدون مسلحين « بالكرابيج » أو بالعصى الكبيرة . فيستعرض الموازين ، واثقال الوزن التي يستخدمها الباعة ، ممتحنا من يختاره أو تختاره المصادفة . وقد يستجوب الخدم الذين اشترؤا شيئا من المواد الغذائية ، ليعلم الثمن الذي دفعوه ، والوزن الذي اعطى لهم . ومن أي بائع كان ذلك ، ثم يأمر بان توزن أمامه المواد ، فإذا اتضح غش في الوزن أو غلاء في الثمن ، استقدم التاجر وأمر بضربه بالعصا في الحال .

يقبض خدمه على المطفف ويطرحونه أرضا بحيث ينكفيء وجهه ناحية الأرض ويشدون ساقيه في « الفلقة » ، وهي نوع من النير الخشبي . ثم يوقع على بطن قدميه عدة منفذين مائتي أو ثلاثمائة ضربة بالسياط بعدها الأغا في هدوء على حبات مسبخته الوردية .

ويسال المحكوم عليه العفو . متوسلا بالنبي ، ثم بالأغا ، ثم بأولاده وهم أعز ما لديه . وفي نهاية الأمر ، لا يستطيع التاجر التعس . وقد تمرقت قدماءه ، أن يعود إلى دكانه إلا محمولا أو متوكا على أذرع بعض أصدقائه أو بعض المتفرجين .

وأحيانا ، إذا تكرر الغش من المطفف أو إذا اتفق مع آخرين لرفع ثمن المواد الغذائية إلى درجة تثير شكوى الجمهور ، يامر المحتسب بتسمير أذنه لكي يكون عبرة رادعة .

وتلك عدالة سريعة ناجزة ، ولكن لها عيوبها . وتوقيع العقاب في أكثر الأحيان يوحيه التحيز ، فإن لم يستغل الأغا سلطته المستبدة في إبتزاز الأموال أو اغتنام السلع ، فإن قواسيه وخدمه يشتنون ذلك في أغلب الأحيان ، وهو أمر سهل حيال هؤلاء التجار الذين لم تحدد لهم رقابة ميزانا ولا مكيالا أو حيال باعة فقراء يكلفهم شراء أثقال الوزن النحاسية ثمنا باهظا لا يستطيعون تسديده فيستغيضون عنها بقطع من الحجر ذات وزن مناسب .

الامن والعقوبات

ما زالت مصر لا تعرف النظم الاوربية المهيبة . ويندهش المرء لقلة الشرطة وقلة الاضطراب مع ذلك . ولا يجد الاجنبى فى اى مكان آخر حرية اكثر مما يجد فى مصر . فالرحالة يقبلون ويقيمون وينتقلون من اقليم إلى اقليم دون أن تهتم أية سلطة بحضورهم . أو تتحرى وظائفهم . ولاى سبب يقومون برحلاتهم . ولا يلزمهم أحد باستيفاء الأوراق . ففى شىء مجهول هنا . على ان عدم المراقبة هذا لا يفسد الامن الخاص واستتباب الحياة العامة . فالطرق بوجه عام مأمونة على الرغم من قلة طارقيها . ولا يبلغ عدد حوادث السرقة والقتل ذلك القدر الملحوظ الذى يبلغه فى الدول الاوربية . وهذا مع حفظ النسبة . ولكنه أمر قد يرجع إلى أن تلك الجرائم لم تجد بعد وسائل النشر التى وجدها بين أهل أوربا .

وفى تلك الأسواق لا تغلق الدكاكين غالبا - وهى التى تجتمع فيها كل انواع السلع الثمينة السهلة الحمل - إلا بأقفال خشبية رديئة . وعندما يتغيب التاجر عن مكانه اثناء النهار . يسدل على بابه شبة بسيطة . واما مخازن الجمرک حيث يتجمع عدد كبير من السلع فقد عهد بحراستها إلى بضعة حراس . على حين تنبسط مستودعات الغلال فى الهواء الطلق .

وقلما تعاقب السلطة بالسجن . ولكنها تستخدم الضرب بكل سهولة وهو تعذيب فضليح همجى كثيرا ما يدفعونه إلى حد القتل . فهم يخلعون نعل المذنب ويرقدونه على بطنه . رافعين فى الهواء قدميه اللتين يوثقونهما ويشدونهما بعضا محلاة بأحزمة تسمى « الفلقة » وعلى هذا الجزء يضربون « بالكرباج » إلى أن يقول القاضى كفى . وكثيرا ما يوقعون هذا العقاب على الدبر . ولقد رايت وزير الحربية السابق « محمود بك » بامر بضرب بستانى قد سرقه ضربا عنى قدميه ودبره وبطنه ورأسه حتى مات التوتل .

وحسب الرواية . قد حدد النبى أن يتوزن الضرب بغصن النخلة أو بعضا مستوية من الجلد . وهكذا يفعلون فى الجيش وفى إدارات القاهرة . ولكن الحكام فى الاقاليم ما زالوا يعمدون إلى الضرب « بالنبوت » وهى عصا غليظة تجرح المحكوم عليه فى أكثر الاحيان .

وقد خطر لمحمد على أن العقاب يكون مفيدا بإنشاء الأشغال الشاقة .
وجميع المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة هم من التعمساء الذين ألحقوا
بأبدانهم عاهات للفرار من التجنيد . ويلاحظ بينهم أيضا بعض التلاميذ
الذين أرسلوا إلى أوروبا وحكم عليهم بالأشغال الشاقة لأنهم لم يستفيدوا
من النفقات التي صرفها الباشا - ناشر المدنية - على تربيتهم .

فن التجارة

اذكر ما روى لى أحد التجار من أن مشترى أتاه فساومه على سلعة ، ثم
قال له بعد أن اتفقا على الثمن إنه لا يستطيع شراءها منه في الحال .
فأجابته التاجر :

« تعال غدا ، فإننى قد استفتحت اليوم . ولكن إذا لم تستطع الانتظار
فأذهب إلى جارى الذى لم يبيع شيئا . ان لديه السلعة التى تريدها .
وقل له إنك اتفقت معى على السعر . فالتاجر إن لم يستفتح قبل الظهر
لن يرزق فى بقية نهاره .

مناداة الباعة فى القاهرة

لمعظم باعة القاهرة المتجولين ، ولا سيما بائعى
الفاكهة وبائعات الباقات مناديات غريبة جدا ، فيها
صور شعرية ، وقد تحمل معنى مزدوجا . وفى أغلب
الأحيان يتعذر عليك أن تعرف ماذا يبيعون وراء تلك
الهتافات أو تلك الإعلانات .

تنادى بائعة اللبن قائلة : « يا صباح اللبن !
أو صباحك لبن ! » ، أى ليكن صباحك أبيض كاللبن .

وكثيرا ما يعلن عن قصب السكر فى الشوارع بندا « أبيض على
والثمن غالى » ، وهى عبارة يفهم السامع أنها عود القصب الذى يغلو ثمنه
كلما كان طويلا أبيض اللون ، وأنها تعنى من ناحية أخرى نهد أو عانة
البائعة التى تكون فى هذه المناسبة فتاة دائما .

ويعرضون قصب السكر أيضا للبيع منادين : « يا الملى يزور حماته
بالنبوت يا أبيض ! » . فالمصريون يزعمون أن الحماة تسدى لابنتها دائما
شر النصائح ضد زوجها ، وهى لهذا السبب خليقة بأن يزورها ختنها
حاملًا عصا فى يده .

وتصبح بائعة البرتقال : « يا بردقان يا غسل ! » أو « كريم عليم
يا بردقال ! » داعية الله مكنية عنه بصفتين من صفاته راجية أن يسهل
البيع ويروجه .

ويصبح بائع الليمون الحلو : « غسل يا طرنج غسل ، دوا للقلب
يا طرنج غسل ! » فهم يزعمون أن هذه الثمرة طيبة للمعدة ، ويخلط البائع
هنا بين المعدة والقلب .

وتعلن بائعات الفاكهة عن سلعهن ، كما يفعلن لدينا ، بإضافة اسم
المكان إلى اسم الثمرة : « قوة الرمان ! » أى أن ذلك الرمان من غرس
« قوة » وهى موضع مشهور بجودة هذه الفاكهة .

ولبائعات باقات الورد مناديات شعرية ، فهن يقلن : « الورد شوك من
عرق النبى فتح » أى أن الوردة كانت شوكة ثم ازدهرت إذ سقطت عليها
قطرة من عرق النبى . وهن يقلن أيضا : « خلاقه عظيم ! » إشارة إلى
صانع تلك المعجزة .

وتباع باقات الياسمين بمناداة « روائح الياسمين عجب ! »
 وتقول بائعات الحنة : « تمر حنة من روائح الجنة » .
 والجائلات لبيع الأقمشة يرسلن أحيانا صيحات غريبة لتستأثر
 بالانتباه ، فلإعلان عن نوع من نسيج القطن مصنوع بالة يجرها الثور
 ينادين : « شغل الطور يا بنات ! »
 وقطع الحلوى الصغيرة التي تسمى : « حلاوة » وهي تتركب من
 العسل المطهو مخلوطا بعقاقير أخرى ، تجول بنداء : « بمسمار
 يا حلاوة » أى أن ثمن القطعة منها مسمار .
 ويجول الترمس فى المدينة بالإعلانات الآتية : « مدد يا انبأبى مدد ! »
 أو « ترمس انبأبة يغلب الكلوز ! » أو « ياما أحلى بوح البحر » .
 وثمة نداء آخر أصعب فهما للأوربى مما تقدم ، ألا وهو : « يا مسلى
 الغلبان يالب ! » . فهكذا يعلنون عن بذور زرع من الشام يسمى :
 « عبد اللاوى » . وهم يبيعونها أيضا منادين « اللب المحمص » .
 ويتجولون بثمر الجميز منادين : « جميز العنب ! » .
 وينادى باعة الليمون : « الله يهونها ياليمون ! » .



الكيف

يبدو أن « لافونتين » قد أراد تصويره فى قوله :
« إنما نعيم الإله ناشئ أنهم لا يحملون هما . أنه
انعدام الموت ، وعمل لا شيء » .

الكيف هو الحياة فى سكون البطالة ، الحياة دون
مشاغل ولا رغبات ، الحياة التى تنطوى فيها النفس
على نفسها فلا يصبح لها من لذة إلا فى الإحساس
بانها تعيش وفى تتابع التموجات والتيجان البيضاء التى يرسمها الدخان
المنبعث من تبغ اللاذقية العبق . فللشرقيين النهمين إلى كل متعة داخلية
هادئة كلمة تستعصى على الترجمة يعبرون بها عن ذلك النعيم الذى
لا يوصف ، ذلك المزاج من راحة الجسم وطمانينة النفس ، تلك السعادة
الآلية ، وهذه الكلمة هى « الكيف » .

وحين يقارن المرء حياتنا المضطربة اللاهثة المتكبرة ، وأسلوبنا فى
فهم السعادة ، بما يذهب إليه العرب من السكون الهنىء ، لابد من أن يفكر
فى بطلى الأسطورة القديمة للذين راح أحدهما يجرى باحثاً عن الحظ
دون جدوى على حين انتظره الآخر فى هدوء على سريه حيث أقبل الحظ
يسعى إليه .

« الكيف » يدل على ذلك الاستعداد الموفق للاستمتاع بكل ما يعرض من
طيب الأمور فى أى موقف يوجد المرء فيه دون قلق لما يعرض فيه من
سيئ الأمور . « الكيف » يعزف الاستمتاع بالراحة إذا أتاحت ،
والاستغناء عنها إذا لم تتح . « الكيف » كلمة تقرب من المثل القائل
« القناعة تفوق الغنى » كلمة يحسن إدخالها فى لغتنا .



الحريم

إذا كانت هناك أشياء لا يراها المرء أثناء رحلاته ولا يمكنه أن يعلم علمها إلا بالإقامة في البلد الذي يزوره أمدا طويلا ، كالعوائد والأخلاق ، فذلك ما يمكن أن يقال عن النساء المسلمات ، نظرا لأنهن منطويات دائما داخل « حريم » لا يرين إلا أزواجهن وأقرب أقربائهن . محال أن نعلم شيئا عن وجودهن إلا من الأوربيات أو السوريات اللواتي يختلطن بهن . وإنك لتسب المسلم سباً إذا سالته عما يخص حريمه ، فهو لا يذكر أبدا اسم زوجته في مجلس عام . وهيهات أن يتحدث في مجلس خاص عن شئونه البيتية

* * *

أما جمال المصريات ففيه شيء مما يروقك في كل النساء الجميلات ببلاد العالم جميعا . وليس حسنهن في انتظام التقاطيع والجمال الصارم الذي تراه في الأوربيات ، إنه حسن حلو ساحر ، مزاج من إفريقية وأوروبا : الوجه لطيف دون أن يكون رائع الجمال ، صغير الأنف ، كبير الفم في وسامة ، غليظ الوجنتين قليلا . وفي عينيه الطويلتين الواسعتين لحظ فاطر فائن غلاب . لا تبحث هنا عن بشرة زنبقية وآلوان من ألوان الورد وصدر من المرمر الأبيض : بل قدر هذه البشرة السمراء التي ذهبت لها الشمس .

وأعجب بصورة هذا الصدر الذي ما أبدع مثال أجمل منه : وانظر إلى هذا الخصر الدقيق كأنه خصر النحلة ، فهو الذي رسمه الفنانون المصريون على آثارهم وخب جميع الفنانين الأوربيين . وإذا كانت الطبيعة لم تشكل المجموع بالنسبة نفسها من الجمال ، فقدّر هذه الأجزاء التي تعوض عن عيوب كثيرة ، ولكن يادر إلى الاستمتاع ، فالجمال هنا يعبر سريعا ، إنه زهرة لا تدوم إلا نهاراً ، وما تكاد تستمتع بها حتى تذبل : ذلك ان النساء لا يقمن بأية رياضة ولا يصطنعن أية وسيلة تحفظ حسنهن ، بل يلتمسن السمنة بكل الطرق ، فتشوهن منذ الصبا .

وتحاول المصريات - والتركيات بوجه خاص - أن يصلن إلى تحقيق تشبيهات شعرائهن القوميين : فهن يسعين إلى جعل أوجههن مستديرة كالبدن ، وإلى جعل أردافهن عريضة بارزة لينة . ولا تبحث كذلك لدى المصريات عن هذه الملاحظة التي تكسب نساءنا ما لهن من شخصية ، فليس لثغورهن سوى ابتسامة واحدة ، وليس لعيونهن سوى نظرة واحدة ، وليس في نفوسهن إلا فكرة واحدة ، هي اللذة ، كأنهن لم يخلقن إلا للحب .

* * *

وفى الشرق ، حيث لا يرى الرجال النساء ، هيهات أن يقرر الحب الزواج . فالزوج لا يختار زوجته عن عاطفة أو لتوافق فى الطباع وفى الأفكار ، بل إن المنفعة هي التى تقود وتقرر . وإذا أراد تركى أن يتزوج فهو يقتن عالة بجارية سرحها أحد الكبراء ، والكبراء يهيئون دائماً مكاناً لمن يقدم لهم ذلك المنفذ . ويهب محمد على فى أغلب الأحيان نساءه اللواتى يضيق بهن لممالكه أو البكوات الذين يعتبرون تلك الخطوة دليلاً من دلائل الشرف أو سبيلاً إلى الثراء والجاه . أما أهل البلاد فيتزوجون غالباً فيما بينهم .

* * *

وترى قريبات الفتى - فى الحمام أو فى زيارة - معظم الفتيات ، فيصفنهن له بالتفضيل حتى إذا ناسبته هذه أو تلك . ذهبت اقرب قريباته إلى طلب يدها . وأقيمت مراسم الزواج فى بيت الزوج . وتخرج العروس من بيت أبيها فى موكب حافل لتدخل بيت الزوجية ، حيث العبودية تنتظرها .

يفتتح الموكب قرع الطبول وعزف الموسيقيين وكل ذلك الهرج الذى يسود الاحتفالات العربية ، ويأتى بعد ذلك الراقصات والمشعذون ، ثم المدعوون إلى العرس ثم النساء المحجبات كالعادة يطلقن صيحات الفرح الطويلة (الزغاريد) ، ثم تقبل العروس تحت سرادق من « القماش » الأحمر ، يكسوها من الرأس إلى القدم حجاب كثيف زاهى اللون ، وقد زينت رأسها بالحلوى . وتسندها فى سيرها امرأتان تقودانها ثم يقبل موكب غفير من الأقرباء والأصدقاء والأطفال وكل من يحب الاستطلاع وكل من يجتذبه الحفل . ويقف جميع هذا الركب بين وقت

وأخر ، لتؤدى الراقصات رقصهن ، ويؤدى المشعوزون حركاتهم . حتى يصل موكب العروس إلى بيت العريس .
وفى اليوم التالى يعرض على المدعويين منديل ملطخ بالدم أو قميص العروس . ويعبر القوم أكبر الأهمية للعلائم التى تثبت أن العروس عذراء . وللزوج الحق فى أن يسرح زوجته فى الحال إذا لم تقدم له ذلك الدليل على عفافها . على أن هذه العادة الفظة والغريبة ليست دليلاً قاطعاً ، وما أكثر القابلات العجائز اللواتى يبعن للغتيات سر خداع عريس ساذج !

ليس للمرأة فى نظر الشرقي قيمة أكبر من انها تؤدى واجب الزوجية . إنه لا يعرف أبداً مناجاة الحب الحلوة ولا النعيم بالثقة . منذ أن يدخل حريمه تَمُتُّلُ زوجته أمامه وقد كتفت يدها على صدرها فى تواضع ووقفت عينها على عينيه تترقب أدنى حركاته . ولا يكاد يشير إشارة حتى تهرع فتخضر له « الشيشة » أو تقدم له القهوة ، على حين لا يفضل السيد - وقد استلقى فى كسل على « الديوان » - بأن يخاطبها إلا لماماً .
والنساء شدييدات التراخي ، يعجزن عن القيام بعمل طويل ، ويقضين نهارهن متمددات على أرائكهن يتعطرن أو يصفرن شعرهن ، أو يسترسلن إلى أجلامهن ، أو يغتبن غيرهن ، أو يتجسسن على سلوك جيرانهن . ومهما يكن من شيء ، فقد توجد هنا السعادة المتوقفة على النساء ، كما توجد فى كل مكان آخر . فإذا كانت المرأة شابة ، جميلة ، محبة ، فيها لطف ورقة ، فهى تستطيع أن تمنح تلك السعادة حبشية كانت أو مصرية أو فرنسية . ولعل الحياة التى اعتادتها نساء الشرق أضمن لسعادة الزوج .

فالعالم والمجتمع فى نظر الشرقية يتلخص فى زوجها وابنائها وبعض الصديقات . وهى لذلك لا تجد فى نفسها تلك العواطف والحاجات المتكلفة التى أنتجها المجتمع وأنتجتها الحركة الصاخبة ، حيث يبذر نساؤنا فى سنوات قليلة نفوسهن وأجسامهن .

إن الشرقيات أكثر هدوءاً ، لا يعيشن إلا بفكرة واحدة ، لرجل واحد ، يقفن أنفسهن على الحب مادمن فى الشباب ، وبعد ذلك يقفن على أولادهن وعلى شئون بيوتهن .

لا تقولوا إذن : إن هذه الحضارة متأخرة ، همجية ، فلئن حرمتهم حرية كبيرة فإنها تعوضهن عنها سعادة بيتية ، وتلك أئمن السعادات جميعاً ، لأنها الوحيدة التي ليست حلاًماً .



من الغيرة إلى الإيثار : قصتان

الغيرة التي بين نساء الحريم أقل بكثير مما نظن بوجه عام : فهناك غير قليل من النساء يعشن معاً كالأخوات ، يهتمن بنفس الشئون ، في ظل نفس الحنان ، دون أن يُثْلِفُهُنَّ الحسد . إنهن يضمنن لزواجهن أو سيدهن احتراماً كبيراً ، وإذا كانت المعاملة التي يلقينها منه رقيقة نزيهة .. أبدين له في أغلب الأحيان إخلاصاً هيبات أن تجده في غير الشرق .

زوج فرنسي

عرفت في مصر ضابطاً فرنسياً كان قد تزوج ، على طريقة أهل البلاد ، فتاة قبطية ورزق منها ولداً . وكان يحبها حبا جما ، ولكنه ، بعد بضع سنوات من هذا الاقتران ، أحب فرنسية أثارت في نفسه جميع ذكريات وطنه ، فطلب يدها ونالها . وإذا علمت الزوجة القبطية استيئت ، وانتهى بها الأمر إلى أن رضيت في إذعان أن ترى من وقت لآخر هذا الرجل الذي وهبته نفسها . وبفضل ثروة صديقاتها سرعان ما وقفت الزوجة الأوروبية على الأمر ، فذهبت إلى بيت غريمته متنكرة ، وعاشت ريثما بعض الوقت وإن وجدتها ممتازة في عوائدها بقدر ما هي ممتازة في تعلقها العميق بزوجهما المشترك ، قررت أن تسكن معها ، ونفذت قرارها في أثناء تغيب الزوج غيبة طويلة . فلما عاد ، قدمت إليه الأم والولد ، وقالت له : « لقد عشنا منذ رحيلك كالأختين ، وأرجو ألا تفرقنا ! »

فكان أن عاشتا معاً ، حتى فرق بينهما الموت .. وكثيرا ما يرى المرء في الحريم زوجتين ترضعان معا ثمرتي حب رجل واحد فتتبادلان كل يوم طفليهما ، إن لم يكن ذلك لتوثيق عاطفتهم المشتركة ، فلتوثيق رابطة الأخوة بينهما على الأقل .



زوجات الشيخ حسن الجبرتي

واستطيع أن اذكر ألف مثل من نساء يخترن بأنفسهن الغريعات اللواتي سوف يشاطرنهن فراش الزوج ، ولكنى سأقتصر على ذكر مثل واحد .. لأن الذى أورده رجل من أكبر رجال القاهرة علماً ، هو الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، الذى كتب تاريخاً لمصر الحديثة سماه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » وفيه يتحدث بإطناب عن أسرته وعن أبيه . والذى يعيننا هو أبوه ، الشيخ حسن ، وقد كان رجلاً مثقفاً مبعلاً .

أحبته زوجته الأولى أنزه الحب ، وكان من بين أعمال البر الزوجى التى كانت تنتظر عنها الثواب فى الآخرة انها اشترت عدة مرات من مالها الخاص جوارى فتيات حسناوات هياتهن على نفقتها ، وقدمتهن سرايا لزوجها . ولما كان الشيخ حسن موفور الثراء فقد اتاح له ذلك أن يتزوج نساء أخريات ، وأن يشتري جوارى أخريات ، لم تظهر لهن زوجته الأولى أية غيرة ، وهذا مالا تفعله كل امرأة .

وحين ذهب الشيخ حسن إلى الحج ، تعرف فى مكة بالشيخ عمر الحلبي الذى ألح عليه فى أن يشتري له من القاهرة جارية بيضاء عذراء لا تكاد تتجاوز سن المراهقة ، وتتحلى بصفات كذا وكذا . فلما عاد الشيخ حسن مضى إلى سوق الرقيق ، وبعد بحث كثير وفق إلى شراء جارية تجتمع فيها كل الأوصاف المطلوبة . وعهد بها إلى زوجته إلى أن يستطيع تسليمها للشخص الذى كان مقدراً أن يقتادها إلى وجهتها . وحان ذلك اليوم ، فأنبا زوجته لكى تعد جميع ما يلزم ، غير أنها فى لحظة فراقها للجارية ، أحست بعظم معزتها لها ، فقالت له .

— لقد ألفت بينى وبين « زليخا » عاطفة كبيرة ولا أستطيع أن أفارقها

أنا لم أرزق أولاداً فاتبنائها ابنة لى .

وكانت الجارية الفتاة حاضرة ، فأخذت تبكى ، وجارت انها لا تريد مفارقة سيدتها أبداً . فقال الشيخ

— ماذا أنا فاعل إذن ؟

فأجابته زوجته :

— اذهب فاشتر جارية أخرى ، وأما هذه فسادفع ثمنها من مالى .

وتم ذلك واعتقت الزوجة العاقر جاريته « زليخا » ، ثم أعدت لها « شوارها » ، وأثنت لها مسكناً منفصلاً ، وزقتها عروساً لزوجها الشيخ

فإذا استرحت قليلا ونديت جميع اجزاء جسمك ندى لذيذا تسلمك فتى يكاد ان يكون عاريا ، ليمرسك فى رفق ، ويقلبك ، ثم يركع فيثنى جميع مفاصلك دون إجهاد ودون إيلاام ، ويمد جميع اطرافك ويجعلها تؤدى حركات كبيرة .

وبعد تلك المقدمات الرياضية ، قد يضع يده فى قفاز باذخ الزينة ، وقد لا يصطنع القفاز ، ولكنه يفرك سطح جسمك باكملة نازعا منه كل وسخ لاصق به ، ثم يزيل بقطعة من الحجر الاسفنجى ما يعترى قدميك من فتوء .

وبعد التدليك ، ينشر على جسمك زيتا صابونيا ثم يغسلك تماما . وحين تنتهى هذه العملية يكسوك بمنشفات جديدة ويعيدك إلى القاعة الاولى ، حيث تستلقى فى استرخاء على « ديوان » ، تحسو القهوة وتدخن الغليون ، على حين يغلفك غلمان صغار بمناشف جديدة ويبدؤون فى تدليكك مرة اخرى .

ولا تكاد النساء تخرج إلا للذهاب إلى الحمام . فهناك يقضين فى كل اسبوع ساعات حلوة لذيدة ، يعرضن ترفهن ، وعطورهن ، ويسلمن شعورهن لتضفر وتصفف فيها صفائح ذهبية او فضية . وفى الحمام ياكلن وينمن وينفخن نهارهن باكملة تقريبا ، وكثيرا مايُنْجَلْنَ بعض المطربين المكوفين ليشتفوا أسماعهن . وتعلن ستارة تسدل على باب الحمام انه مغلق دون الرجال ، وإذ ذاك يترك جميع خدم الحمام مكانهم لخدمات .



رذيلة تركية

الملاوطة رذيلة شائعة جدا فى مصر لا سيما بين الاتراك الذين لا يتخرجون من مزاولتها جهرا . قبل حرب المورة ، حينما كان إبراهيم باشا حاكما للصعيد ، كتب إلى القاهرة يطلب حضور حريمه . فارسل إليه الباشا الكبير ، بدلا من نسائه ، ممالك احدانا ، قائلا إن رجل الحرب لا ينبغى ان يكون له من حريم غير ذلك . وكذلك فعل محمود بك حيال ابن اخيه . وهذه الرذيلة التى هى اقذع عار ترمى به الإنسانية لم يكن لها اى رادع فى مصر حتى سنة ١٨٣٠ إذ فرض محمد على عقاب الاشغال الشاقة على الجنود الذين

يرتكبون فيما بينهم هذه الفاحشة . وكان الشعور بالعار خليقا بان ينال أولئك الآثمين منالا أشد من هذا الجزاء الذى لا رجعة فيه ولا تشهير . وماذا انتج نفى البغايا ؟ لقد نشر خطيئة سدوم انتشارا ذريعا ، لا سيما فى الاسكندرية حيث كان المنع اصرم . فالغاشمون لا يرون بأسا من نفشى مواخير الغلمان ، ولكنهم يفرقون فى البحر أى امرأة يأخذون عليها أدنى علاقة محرمة . وقد انتهكوا فى الاسكندرية اطفالا أوريبيين دون أن تجرؤ عائلاتهم على رفع الشكوى خشية الفضيحة . وطننت الصحف لمقتل فتى راح - مع انه كان ملتحي الذقن - ضحية رفضه الإذعان لهذه الفاحشة .

* * *

لقد حرص الفنانون المصريون القدماء على تلافي تمثيل كل ما من شأنه أن يجرح الذوق الرقيق المرفه . ففى تصورهم للمواقع ، حفظوا للمقتلى والجرحى جميع أعضائهم ، فلا ترى شخصا بقرت بطنه حوافر الخيل . وفى المنظر الذى يمثل التحنيط ، حرصوا على ألا يضعوا جثة بين يدي أنوبيس ، بل رسموا المومياء تحوطها أربطتها ، هادئة الوجه مبتسمة للموت . وفى مناظر الولادة ، تجد دائما ان عملية الوضع قد تمت ، ولا ترى أدنى شئ من التفاصيل التى تعافها العين ويمجها الذوق . أما آثار الهنود فهى عكس ذلك تماما .

* * *

دراويش

نوع من الماجنين نصف عراة ، يحتقرون - تحت ستار الدين - كل شئ ما عدا شهوات البدن . وهم من الشعب ، يتكلمون لغته ويقنعونه أكثر مما يقنعه العلماء .

فى صلاة الجمعة ، اقبل درويش فوضع أمام كل من الحاضرين ورقة صغيرة يحليها إطار من الزخارف العربية وتحوى آية من القرآن . ووضع كل امرئ صدقته فوق البطاقة ، وعاد الدرويش فجمعها دون أن يوجه للمتصدقين عليه أدنى شكر .

وقلنسوة الدرويش منسوجة من تسع وتسعين غرزة لا غير ، إشارة إلى صفات الله التسع والتسعين .

* * *

حفلة ختان

شهدت هذا المساء حفلا من العادة إقامته عند ختان الاطفال . رايت هؤلاء الاطفال على صهوات جياذ باذخة الزينة يطاف بهم في أرجاء المدينة ، ويتقدمهم موكب حاشد . وعلى رأس هذا الجمع رجل يرفع عصا كبيرة مزينة بالأشرطة والأزهار ، يتبعه عدة مشعوذين ، وعوالم قد أسرفن في طلاء وجوههن وانطلقن في هيئة مثيرة يغنين ويؤدين رقصا ماجنا . ومصارعون دهنوا أجسامهم بالزيت ومضوا يعرضون حركات رياضية . ثم تأتي بعد ذلك جوقة من الموسيقيين راكبي الحمير ، يعزفون أنغاما حادة ثاقبة لا توافق بينها ، وانه لضجيج حقا .

وترسل النسوة اللواتي يختتمن الموكب صيحة حادة تختلط بين حين وآخر بالموسيقى ، وهى تلك الصيحة نفسها التي يستخدمنها فى الجنائز مع تنويع خاص فى تنغيمها باصواتهن . ويسند كل طفل على حصانه سائسان يقفان به ما وقفت هذه « الزفة » ، وهى تقف فى كل ميدان لتؤدى الرقص والألعاب .

وهكذا يعودون بالاطفال إلى بيت أبيهم حيث يقوم حلاق بالعملية . ولا يفوت الأب أن يدعو إلى وليمة حافلة لهذه المناسبة- جميع الأقرباء والأصدقاء .

ولم يامر القرآن بالختان ، ولكن المسلمين ، بل والأقباط أيضا عقب العمام ، يختتنون بوجه عام جريا على تقليد ورثوه عن آبائهم ، ولأن ذلك من إجراءات النظافة . ويقال ان فيثاغورس قد اضطر إلى أن يمثل للختان لكي يتحدث مع الكهنة المصريين ويباح له دخول هياكلهم . وأما اليهود فينفذونه بوصفه فرضا دينيا .

* * *

العرس الحزين

روى لى الجنرال « دumas » قصة عن كرم الضيافة العربى أعجب بها الجميع ، فلما رويتها لأحد المصريين ذكر لى قصة أروع منها حدثت فى القاهرة منذ حوالى عشرين سنة .

فقد دعا عواد مشهور يسمى « محمد الجاهل » جمعا عديدا لشهود عرس ولده . وما كاد يدخل الفتى على عروسه حتى أخدمته نشوة السعادة بين أحضانها على حين فجأة . فلما أنبىء الوالد التعس بالفاجعة لم يظهر شيئا من ألمه ، وكتب ولولة نسائه بأن هدهن بالطلاق ، ثم عاد فجلس مع ضيوفه ، وتناول عوده ، وأطربهم حتى الصباح . وبات يستمد من عوده ألحانا شجية عجيبة ، ويتغنى بكلمات موافقة لما يجد من شعور ، ودموعه تسح من عينيه فتستدر مدامع جميع الحاضرين .

ولما حان انصرافهم قال لهم :

— ما أردت تعكير صفوكم ، فامكنوا معى قليلا لتعزيتى . إنى فقدت ولدى فى هذه الليلة ، فامكنوا لتشيعوه معى . ولتكن إرادة الله .

وإثناء تلك الليلة ردد مرارا هذه الأبيات التى ارتجلها تحت تأثير ألمه ، والتى مازالت حتى اليوم ماثلة فى ذاكرة من سمعوه يغنى :

سبل عيونه من غير نوم	والعين سودة بتراشى
نائم على فرشه سكران	ويقول حبيبى ماجاشى
روح يا عذولى إبعد عنى	إنا وحبيبى متهنى
قوم قوم	قوم قوم



طبّق الأصل

من دراسة الرسوم المنقوشة على المقابر المصرية .
يوقن المرء بتأثير « المناخ » على أخلاق السكان
وعاداتهم ، وذلك للتشابه الذى بين عادات أهل مصر
القديما وأهلها المحدثين ، فإن تجدد ظواهر بعينها
تجدد دوريا ، واستقرار « المناخ » هذا الاستقرار
الثابت قد أنتجا عادات واحدة وميلا إلى الرسوخ
يتميز به المصريون . وذلك ما جعلهم يحفظون حتى أيامنا هذه ، بالرغم
من الثورات الدينية والسياسية المتعاقبة ، كثيراً من العادات القديمة .
كان جميع المصريين ، على ما ذكر هيرودوت ، يحلقون رؤوسهم ، ولكن
جميع المومياة - باستثناء بعض الكهنة - محتفظون بشعرها ، ورسوم
المصريين تظهرهم لنا بشعرهم ولحاهم دائما .
وتصنيف الشعر خلا متفرقة ، كما نراه بكثرة فى الرسوم ، مازال من
عادات العبادة .

وكانت حمالة تشد قمصان القدماء ، كما نرى بوجه عام لدى الفلاحين .
وكانت النساء فى القديم ، كما هن اليوم ، يتخضبن بالحناء ويحملن
شفايف طويلة من الشعر تتدلى على اكتافهن .
وعادة أنتوازن فى وضع متوسط بين الجلوس والركوع ، مازالت من
عادات المصريين .

وقمصب الغاب الذى يستخدمونه فى الكتابة شىء عام لدى جميع
الشرقيين

وقد واصل أبناء الشعب حمل الأواني على راحة اليد مع تقريب المرفق
من الجسم وجعل اليد بجوار الكتف ، وهذا تمثله كثير من الرسوم
القديمة ، كما هى تمثل العادة المنتشرة حالياً فى نقل الأثقال ، فإنهم
يعلقونها على رافعة شديدة يحملها من طرفيها على مناكبيها اثنان من
الرجال .

ويقول هيرودوت : « إذا مات رجل ذو مكانة ، لطخت جميع نساء بيته
رعوسهن ووجوههن بالطين ، وكشفن صدورهن يطمئنها ، وطفن فى
المدينة » . وهذه العبارة تذكر بالذى مازال يجرى فى أيامنا .

اما الأثاث والأدوات المنزلية فهي شديدة الشبه بما عرفه منها القدماء .
يرى المرء في الرسوم قدوراً كبيرة كانوا يضعونها على أقدام من خشب ،
ويبدو أن أواني أخرى متنوعة الأشكال كانت لها خاصية التبريد .



الخلود في الحياة اليومية

امام لوحة من الفن المصري القديم جلست فلاحه جلسة الكاتب المصري . ووقفت الأخرى
كحاملات القرابين « بريشة إدريس أفندي »

جولة فى شرقى الدلتا

هناك منطقة بأكملها من شرقى الدلتا قد خيم عليها الفقر . عبثا تبحث عن مدينة حديثة واحدة فى هذه الربوع التى مازالت تعرض آثار كثير من المدائن التى كانت عامرة فى القديم . وفى كل يوم تنقرض هناك الزراعة مع من ينقرض من الناس .

استوينا فى مركب شرعى ، وحظينا بهبوب نسيم جنوبى خفيف ، وفر على البحارة عناء التجديف . وبدانا الرحلة فى جذل ، بين صخب الأغاني المرحية وتصفيق الأيدي التى توقع الألحان مع قرع الدريكة المرتفع .

شبرا :

وسرعان ما مررنا بشبرا ، أى بقصر النزهة الذى بناه محمد على . فى حديقة ذلك القصر « كثنك » يذكر المرء بخيالات الشرق . ويجسم أمامه منظرا ساحرا من مناظر « ألف ليلة وليلة » .

ثم مررنا بعدة قرى لا تقدم للباحث عن الآثار ولا لمحِب الاستطلاع أى موضوع شائق ، وإنما تناقض بمظهرها الخرب وفقرها المدقع بذخ الباشا وترف العظماء . إن هذه اللوحة المحزنة التى تجرح بصر المسافر أينما رسا لتضطره فى أكثر الأحيان إلى التفكير فى أسباب هذا البؤس العميق الذى يحصد الشعب المصرى . فلو كانت حسنات الحضارة لا تُشتري إلا بالآلام والحرمان ، لما دفع شعب أقدح من ذلك الثمن نظير هذا الخليط الشائن من الهمجية والمدنية الذى يصدم أعين الرحالة فى مصر .

بناها العسل :

وإذا تابع المرء مجرى الفرع الشرقى للنيل - وكان هذا الفرع يحمل قديما أسماء تختلف باختلاف الأماكن التى يخترقها - فإن أول قرية ذات بال يلاحظها هى « بنها العسل » ، التى اشتهرت فى الماضى بحلاوة عسلها وبجمال حدائقها . فمن هناك ، فيما يقول الكتاب العرب ، أخذ المقوقس ما أرسل من عسل - مع هدايا أخرى - للنبي محمد ، قبل أن يغزو عمرو بن العاص مصر بسنوات قليلة .

تل أتريب :

وراء « بنها العسل » وإلى الشمال منها بقليل ، يرى الناظر عدة تلال من الأطلال تبين مكان مدينة قديمة . تلك آثار « أتريبس » التي مازالت تحفظ اسمها قرية واقعة إلى شمالها الشرقي تسمى « أتريب » .

روى لى عامل أوربي التقيت به على تلك التلال انه أثناء تنقيبه فيها بحثا عن أحجار قبل انقضاء عشر سنوات تقريبا ، وجد أسدا من الجرانيت الوردى ، وعدة أعمدة من المرمر الأبيض وبقايا حمام . وقد استخدمت جميع هذه الآثار فى بناء مصنع غزل القطن بينها العسل . غير أن الأسد ، بفضل صلابه مادته ، قد نجا وأصبح يزين مدخل ذلك المصنع . حاملا خرطوشة رمسيس الأكبر ، الذى ورد بين ألقابه على هذا الختمال لقب « منظم مصر ومروض البلاد الأجنبية » .

ميت غمر وزفتى :

وأما ميت غمر وزفتى اللتان نصل إليهما بعد ذلك ، فبلدتان صغيرتان لا أهمية لهما ، تواجه إحداهما الأخرى على ضفتى النيل المتقابلتين . بهما مصانع لغزل القطن ولتحضير النيلة . ويبدو أن هاتين البلدين حديثتا الإنشاء ، فلا يلقى الجائل فيهما أى جزء قديم . لقد لاحظ الرحالة « سافارى » فى ميت غمر مسجدا يعلوه برج مربع خطر له أنه استخدم كنسية للمسيحيين قبل غزو العرب .

غير أن السائر فى أرجاء مصر يستطيع اليوم أن يرى عدة منائر مماثلة ، وليس طراز المسجد فى جملة مما عرفه مسيحيو الدولة الرومانية الأخيرة ، بل تلك عمارة عربية خالصة ولكنها ذات طابع بالغ الطرافة يسترعى التفات الفنان .

وتأخذ ضفاف النيل - وهى كثيفة ممتدة حتى تلك المنطقة - فى التزين بأضرحة جميلة ، أنيقة الشكل ، يتناقض بياضها الناصع سواد اللبْن والطين اللذين بنيت بهما البيوت وأبراج الحمام العالية فى جميع القرى .

بهبيت :

وعلى بعد ثلاثة فراسخ من سمند ، مازال الناظر يستطيع أن يرى بالقرب من قرية بهبيت ، على بعد نصف فرسخ داخل الأرض ، سورا كبيرا .

من اللبن يحوط الأطلال الباقية من معبد لإيزيس يمكن للمرء أن يتخيل أبهته ، وإن كان من المحال اليوم أن يتعرف على أسسه . لقد كان مشيدا بأكمله من كتل جرانيتية ضخمة الأحجام .

وبينما أنا منهمك فى رسم نقوش ناووس لإيزيس ، شاهدت أحد العمال ، تتبعه امرأتان ، وقد أقبل ليريهما الحجر الشهير بحجر « العرايس » ، والذي يعتقد أهل القرى المجاورة ان له القدرة على إزالة عقم النساء . وكانت العروس الشابة التى لم ترزق منذ سنين ولدا تخشى العار الذى يلتصق هنا بالعقم ، فقبلت فى ورع كل تمثال على ثدييه وعلى بطنه ، لعل تقبيل هذه المواضع أشد أثرا . وقفزت سبع مرات فوق الكتلة ، ثم مضت راضية . إن عبادة الصور لم تندثر تماما بين أهل مصر ، رغم احترامهم للقرآن واتباعهم ما نص عليه من الفروض اليومية ، فما أطول عمر الأساطير ! .



وخطة معمارية طريفة من حيث توزيعها الغريب لنيف ومائة عمود مختلفة المواد ، فبعضها من المرمر ، وبعضها من الجرانيت وبعضها من « البروفير » الأحمر تتناثر أشكالها بقدر ما تتناثر ألوانها ، وتحمل أقواسا خبيثة تتكئ عليها أخشاب السقف .

لقد دأب الناس على التكسير من الأعمدة المرمرية والحفر فيها وهناك المسلمون والمسيحيون ممن ينسبون إليها قدرة إعجازية على أمور معينة ، ويشربون نقيع شيء من هذا المرمر بعد سحقه . وبلغ من تخريب تلك الأعمدة أن بعضها لا يكاد يقف إلا على سن رهيبة يُفزع منظرها عين زائر لا يؤمن بإعجازها . وهو يطوف بهذا المسجد المهجور .



الأتقياء والماجنون

دخلت يوما مسجد [أبى لاتا] بدمياط لكى أرسم تيجان الأعمدة ، وهى آثار عتيقة منتزعة من معابد الدولة الرومانية الأخيرة ، فوجدت المسجد مليئا بجمهور صاخب . لقد وافق ذلك اليوم عيد شيخ مبجل هناك بسبب معجزاته العديدة ومدفون بهذا المسجد الذى أصبح يحمل اسمه . وكان ضريحه مزينا بالأسمال وخصل الشعر وبهرج النذور - كما تزين العكاكيز التى تمكن من المشى أصحابها الكسيحون - أو تماثيل السيقات والأذرع كنييسة كاثوليكية .

وأخذ الجمهور يتزاحم فى صحن المسجد حيث كان الإمام قد شكل حلقة كبيرة احتلت مركزها سارية عالية مزدانة بالأعلام ، قبع تحتها اتقياء يفككون حبات مسابحهم . وآلف غيرهم من ذوى الحمية - بينهم الشيوخ المسنون والرجال والفتيان من جميع الطبقات ، وهم يسرون وقد اعتمد بعضهم على بعض - محيطاً متحركاً يدور ببطء حول الحلقة الداخلية . ومضت كل حلقة نابعة من تلك السلسلة الكبيرة تهز جسمها هزاً وتهتف بصوت أجوف أحش : الله ! الله ! الله !

كان كل منهم يتكئ ببسراه على من تقدمه ، ويمد يمناه للمتفرجين الذين وقفوا صامتين ، فكوثوا المحيط الخارجى للدائرة . وكان كل متفرج

حريصا على أن يسند الدائرين ، وأن يقبل في ورع أيدي المتشجنين .
وكان الإمام وبضعة شيوخ قائمين بجوار السارية يصفقون بالأيدي
ويصيحون ليضبطوا التوقيع الذي راح قرع الطبول يؤديه أيضا بطريقة
أشد ضخبا .

وسرت عواطف الحماس والاستنفار ، وانتقلت من شخص إلى شخص
عن طريق البصر والسمع واللمس ، فانتشرت كما تنتشر العدوى ، وادت
في وقت قصير إلى دوار عام .

وجيئنا انتهى بهم التعب إلى التهاوى ، امسك المنهوكون منهم عن
الاهتزاز ، وسقطوا وسط الجمهور التقى الذي كان يبادر إلى وضعهم في
الحلقة ، وهناك يقبعون جامدين ، لاهئين ، شاردي الأعين ، في حال من
الفناء والسكون والنشوة هي في نظرهم أفضل من جميع خيرات الأرض ،
لأنها تصلهم بالجواهر الأبدى ، الذي يأتي نوره إذ ذاك - كما يقولون -
قيلا نفوسهم .

لبثت وقتا طويلا تأمل هذا المشهد . كان في الأزياء المتنوعة الغربية
التي ارتداها هؤلاء المشحونون بالأرواح ، كان في خليط ملابسهم ، وفي
تعبير عيونهم ، وفي التشنجات التي أخذت تغير ملامح وجوههم ، كان في
هذه اللوحة باجمعتها طابع من التشيع والدوار المقدس آثار رعبى .
ويطلقون على هذا النوع من التمثيل الدينى اسم « الذكر » أى إحياء
ذكر الله ، والأولياء إلخ . وهى حفلات تقام فى مناسبات مختلفة ، لشخص
أو لجماعة ، بغية الحصول من الله على نعمة ما أو للاتصال بذاته .
وقديما دفع داود وحى مُشابه إلى الرقص أمام التابوت المقدس .
وأما محترفو التقوى ممن يستغلون الدين دائما فى خدمة أغراض
الدنيا فيقيمون الذكر لإسقاط غريم ، ولاستئزال المرض على مناسف ،
أو الموت على عدو . ويوجد كتاب عربى عنوانه « جلجوتية » يعلم
الصوم والصلاة وجميع الطرق التى تستعمل فى « الذكر » ليكون قوى
المفعول .

وبعد أن خرجت من المسجد ، توجهت نحو الأضرحة التى تحيط به ،
حيث اتصل الاحتفال بالعيد فى أسلوب آخر . هناك كان ينتظرني مشهد
جديد . كانت تلك الجبانة بأسرها تكسوها الخيام والمقامى والمنابر
المتنقلة . فهنا راقصات ومشعوذون يسحرون شبابا شرها ، وهناك

اراجيح تمرح فوقها الطفولة الالهية .

وآذنوا من جماعة يبدو لي أنها أشد ابتهاجا وصخباً مما عداها . فقد كان جمهور غفير يتزاحم في دائرة حول قرد غليظ قد أُحْكَمَ تكميمه ومضني يلعب مع غلام صغير . وبعد دورات عديدة من الكر والفر ، وحركات كثيرة متنوعة ، استولى ذلك الحيوان الشهواني على الغلام وانهال عليه بدعابات مخلة بالحياء وسط التهليل العام .

هذا الفجور المنفر لم ينقصه شيء ، ولم يدخل عليه أى تخفيف شكلي ، ولا يستطيع غير المجنى عليه أن يقول هل وقعت الفعلة الفاحشة توقيعاً تاماً . وكان جميع المتفرجين يصفقون ، بل واجترأت نساء على أن تشهد مثل تلك المخازي ، ومن بينهن أمهات ممسكات ببناتهن ! .

* * *

كنت قد رايت في المسجد شبانا ينتهلون من الدين نفسه إفراطاً حرمة الدين ، فقد قيَّحت الخرافات والتشيع أمخاخم الفتية بمرض عضال ، ورأيت في الخارج فتيات يتلذذن بمناظر الدعارة حيث يأتين ليفقدن عذراوية قلوبهن التي لا يعيرها الشرقيون من الاهتمام ما يعيرون عذراوية أجسامهن .

ويمكن لهاتين اللوحتين المتقاربتين أشد التقارب أن تعطياكم فكرة عن الأخلاق والتربية هنا . إن الحكومة تترك مثل هذا الفساد قائماً وتنبأهي بما أدخلت من إصلاحات في الدولة !

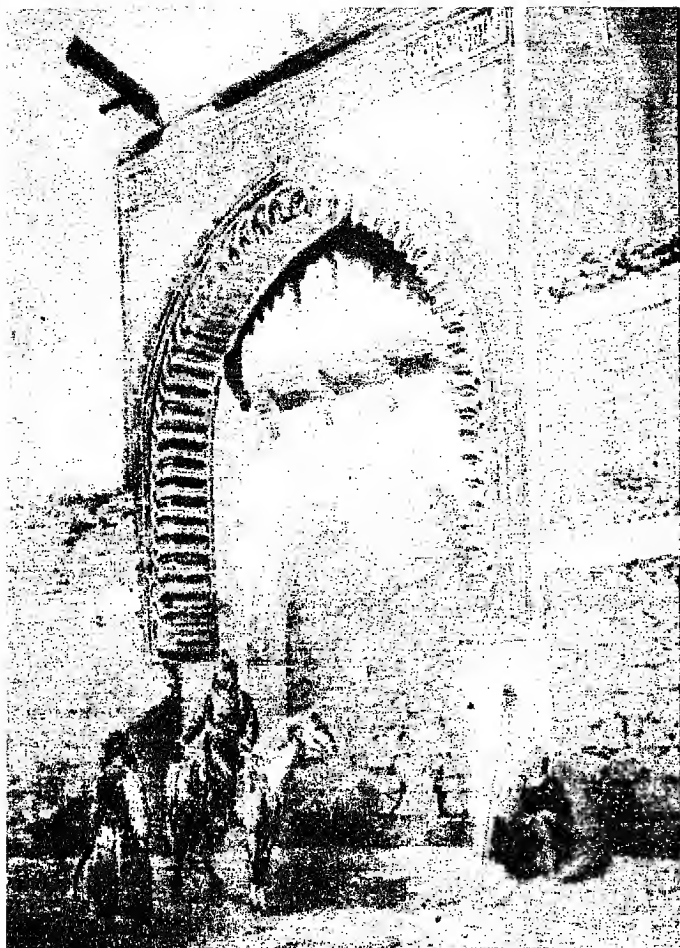
وانحدر النهار ، ودُهِبَتْ آخر أشعة الشمس قمم الأضرحة وشواهداها ، فخرجت على المسجد ودخلته وسط خضم من الناس لالقي نظرة أخيرة على الرقصة المقدسة .

كان الجمهور قد ازداد عدداً ، فقد انضم إليه جميع العمال بعد أن فرغوا من شغل اليوم . وجدت نفس الصخب ، ونفس الاختلاط ، ونفس الاحتشاد ، ولكن اللوحة قد امتست خلاصة رائعة . فإلى تلك السارية المزينة بالرايات شدت حبال طويلة كالحبال التي تشد سفينة راسية ، وتدلت من تلك الحبال عقود من المصابيح الملونة بهرجت المنظر بأضواء متنوعة السطوع . وبدلاً من تلك الحلقة الكبيرة التي كانت تدور حول السارية ، رايت حلقة خاوية راح جميع من كانوا يشكلون محيطها يتحركون ، كل قرد على حدة ، مميلاً أعلى جذعه إلى اليمين وإلى اليسار

ثم إلى الأمام ، وهو يصيح دائما : الله ! وكان من يسقط منتشيا يظل في وسط الحلقة أو ينسحب بعيدا ليستمتع كما يروقه بتلك السعادة . وبعد استراحة دامت لحظات قصيرة ، تغير المنظر أيضا . فقد جلس أكبر القوم جلالا وتقوى في أسفل السارية ، وأحاط بهم المتفرجون ، تاركين بين كتلتهم فضاء صغيرا . ولم تلبث حتى انطلقت صيحات فرح تشبه زغاريد النساء المديدة ، رد عليها الاتقياء ، وإذا بثلاث فرق من الرجال ، رؤوسهم كاسية بحجاب طويل ، وأجسامهم عارية إلا من إزار أبيض ، يدخلون الحلقة دون أن ندري من أين أقبلوا ، ثم يجتمعون ويسفرون عن وجوههم ويؤلفون سلسلة جديدة . وكان كل شخص يحمل بكلتا يديه جرة صغيرة من جرار الدراويش ، ويقفز وهو مقوس الجسم مقدما ساقه اليمنى إلى اليسار قليلا ليدور على قدمه هذه ثم على قدمه الأخرى بالمثل ، وتلك حركة تشبه الخطوة الماسونية ، كانوا يؤدونها وهم يرددون الهتاف الأبدى : الله ! وبدأ أنهم يقدمون الماء لكل امرئ ، ولكنهم ظلوا يرفضون إجابة سؤال الحاضرين ، ولم يوافقوا على توزيع الماء إلا بعد قيامهم بدورات عديدة .

واتصل المشهد ، في أضواء المصابيح الملونة وضوء القمر الذي طلع إذ ذاك . وكان السكون ، وكانت الوجوه المطمئنة الخاشعة في ذلك المجلس ، وكان تنوع الإزياء ، وذلك السرى الغامض الرمزي ، وكانت تلك البوابات الخربة ، وهذه المئذنة الشاهقة القائمة كصنم معبود ، كان كل ذلك يضيئ على تلك اللوحة الجديرة بريشة « رامبرانت » ، طابعا قاتما وطريفا لن تجد له نظيرا في غير ذلك المكان .





قازين امام مسجد الظاهر بيبرس في القرن التاسع عشر
عن كتاب الفن العربي لإدريس أفندي .

سوری فی تاریخ دمیاط المدیث

وكان « فخر » يتكلم بطلاقة العربية والتركية واليونانية والإيطالية ويندهش المرء إذ يحاول أن يعرف كيف استطاع ، مع العناية بتجارته وأعماله ، وحياته في هذا الركن من العالم بعيدا عن وسائل التثقيف ، أن يجد متسعا من الوقت ليتعلم جميع تلك اللغات ويشتغل بأدائها . وكان يفهم الفرنسية فهما يتيح له أن يترجم كتبها ، وقد تعلم الرياضة في كتب موضوعة بهذه اللغة .

رايت في مكتبته التي تضم أفضل المؤلفات الفرنسية وعددا كبيرا من الكتب العربية والتركية واليونانية مخطوط ترجمة لكتاب قولني « الأطلال » ومختارات وافية من « وصف السماء » لفرانكور مترجمة إلى العربية ، وبعض الفصول عن تاريخ مصر القديمة مما كتب المؤلفون المصريون . واطلعت كذلك على مجموعة من رسائل « باسيلي فخر » إلى عدد من أساقفة الشام والبطاركة تتناول أهم الموضوعات الدينية . إنك لقرى أي الدراسات كان يؤثرها « فخر » ، وإنك لتقدر أي ثورة في الأذهان كان خليقا بأن يحدثها نشر تلك المخطوطات .

ولكن للأسف عاد « باسيلي فخر » في السنوات الأخيرة من حياته إلى جميع أوهام الأدباء الشرقيين ، فراح يشتغل بالسحر ، وكست تعليقاته كثيرا من كتب التنجيم . واستدرجته علوم الغيب إلى دراسة الهيروغليفية ، فانكب عليها بحماس ، لا ليبحث عن تاريخ حضارة المصريين القدماء ، بل ليكشف الأسرار التي أراد الإله « هرمس » أن يستودعها الخلف عن طريق لغة جامعة .

وكانت دار « باسيلي فخر » - وهي أجمل دور دمياط وأكثرها بذخا - مفتوحة لجميع الوافدين من جميع أنحاء الأرض ، ولا سيما الأوروبيين الذين كان يحب عشرتهم . وما زال أهل دمياط يتحدثون عن كرم ضيافته ، وما أدى من خدمات عديدة . وقبل موته بلحظات قليلة - وقد توفي منذ بضع سنوات - قال للقسوس الذين أقبلوا يحملون إليه آخر الفروض : — لا حاجة بي إلى وسطاء يتشفعون لي لدى كائن عادل طيب يعرف أبعد ما تكنه أفكارى خيرا مما أتذكره . دعوني أغادر هذه الدنيا كما عشت فيها .



من ذکریاتی فی الأقصر

بعد أن أقيمت نظرة سريعة على أهم معالم مصر العليا والنوبة السفلى رجعت إلى « طيبة » حيث كنت أريد أن أستقر لكي أدرس الآثار وأقوم على مهل برحلات مختلفة في وادي النيل وفي الصحراوين اللتين تمتطقانه بحزام من الرمل والجبال الماحلة . وبدأ لي المقام في الأقصر أفضل منه في أية قرية أخرى من القرى الراضية بين أطلال العاصمة الفرعونية ، وقررت أن أنزل في المسكن الذي شيده البحارة الفرنسيون الذين كلفوا بأن يبقوا إلى باريس المسئلة التي تحلّى اليوم ميدان « الكونكور » .

وكان ذلك المنزل المتواضع المبنى باللبن فوق طنف قصر «أمونويوليس» أشمل المنازل راحة، فقد كان المرء يشرف منه على منظر رائع، ويحظى فيه بنسمات النهر البليغة، وينتقل منه وإليه بمواصلات ناجزة ميسرة، ويجد بعد هذا كله في القرية ما يكفل حاجات أنحياة اللازمة.

وسرعان ما تم استقراري بفضل قلة الأثاث الذي يتطلبه بيت عربي ، فبعض البسط والنمارق والخصر كان لي أقصر ديوان هناك . وكان اثاث غرفتي يتألف من مائدة وكريسيين أخذتهما من قاربي ، وبعض الكتب صفقتها على ألواح من خشب الجميز منزوعة من تابوت مومياء ، وخريطة معلقة على الحائط بين أسلحتي التي أصطحبها في رحلاتي وأدوات الصيد ، وشريط من الجريد تعلوه كلة . وهكذا كان لي في غرفتي ما يفي بمقتضيات الحياة العامة ولوازم الدرس والحياة الخاصة .

وكنْتُ قد استقررت باسمي العربي الذي اطلق عليَّ عندما دخلت في خدمة محمد علي والذي احتفظت به أثناء الرحلة كما احتفظت بزي النظام. « لما كنتُ يسرا في من وسائل الحياة دون سبة بين المسلمين الذين كانوا يحيطونني والذين كنتُ أعرف من لغتهم وأشواقهم ما يلاحظ أن أخرج شعورهم ومعتقداتهم.

وكان مجتمعي العربي المعتاد ينالف من ناظر قسم الأقصر ومن قاضي القرية وكنت اتحدث معهما في كل شيء واستقي منهما تاريخ الاقليم ونظام إدارته في عهد ما عاصراه من الحكومات التي اختلفت عنه

وكان مجتمعي الأوربي مركزا في شخص يوناني يقيم على الضفة الأخرى بين المقابر المصرية ، حيث كان يعيش من تجارة الآثار ومن غلة بعض الأراضي التي كان يستخدم في زراعتها عددا من الفلاحين أسعدهم أن ينجو تحت حمايته من أتوات الشيوخ . وكان هذا الرجل الطيب واسمه « تراياندافيلو » ، قد ضحى بكل شيء في سبيل استقلال بلاده وبعد أن فنى ماله في سبيل ذلك الكفاح ، حضر إلى مصر تحت ضغط الأحداث واضطر إلى البقاء بها ، ويتحدث دائما عن رغبته في العودة إلى وطنه ولكنه يجد الاطمئنان في خلوته الهادئة فلا يغادرها حتى يموت . وكان قد حط في « طيبة » لإدارة حفائر مستر « سولت » ثم واصل التنقيب لحسابه الخاص إذ توفي القنصل الإنجليزي واكتسب هو من طول الخبرة معرفة بالأرض تؤهله أن يحدد لك مكان جميع آثار طيبة التي بيعت في أوربا منذ أربعين سنة . وكان بفضل مقامه الطويل وتجاربه وما أتيج له أن يؤدي من خدمات للرحالة ، على صلة بجميع من اشتهروا في العلم ، فكان حديثه ينبيء دائما بتفاصيل مفيدة . ومقابل المعلومات الخاصة بالآثار أو النواذر التي كان يرويها لي ، كنت امدد بأخبار أوربا وأحدثه عن عجائب حضارتها . وكثيرا ما كان يأتي لزيارتي حين كانت دراساتي تجذبني إلى الضفة الأخرى بين المقابر الفرعونية ، وكان يسرني أن اتقبل بدوري كرم ضيافته .

ولما كانت الحاجة قد اضطرتته إلى التقتير فقد كان يعيش وحيدا كالراهب ، يحوك ثيابه بنفسه ، ويعد طعامه بنفسه ، ويصوم كل صوم في المذهب اليوناني ويقرأ كتابه المقدس بانتظام ، غير متخذ بعد ذلك من تسلية لإقراءة « هوميرو » أو « هيرودوت » وبعض الصحف التي كان يرسلها إليه مراسله . لقد صالحنى هذا الرجل الطيب القلب ، الخدوم البصير بالأمور والناصح في حكمه ، صالحنى مع أبناء جنسه الذين يتعلم المرء بلا انقطاع أن يحتقرهم أينما رحل في حوض البحر الأبيض المتوسط

وإلى جانب هذه العشرة الثابتة ، كان يقبل من وقت إلى آخر الرحالة الذين كان يجذبهم إلى هذا الربع من مصر العليا حبهم للاستطلاع أو الدرس أو علاج ما أصابهم من داء أو الاشتغال بالتجارة ، والذين كانوا كالطير العابرة لا يخافون إلا اسمهم وبعضهم أبناء البلاد التي أقبلوا منها .

ولكن بعضهم كان يقيم أمداً يقصر أو يطول بين هذه الآثار ، يحفرهم من الدوافع ما استبقاني هناك . من هؤلاء الرواد من مات قبل أن يستطيع إدراج اسمه فى سجلات العلم ومنهم من عجز أن يطلع على العالم بثمره لعلمه ، فهو ميت رغم حياته ميتة ليست أقل إثارة للأسف .

وكان مجتمعى الشرقى ، باستثناء بعض الأشخاص ، متنوعا كمجتمعى الأوروبى . فقد كان كبار الموظفين الذين يجيئون للتفتيش على الاقليم يلتصقون فى أكثر الأحيان فى المنزل الفرنسى مسكنا أرق هواء واضمن للراحة . من المقام فى مركب على النيل أو تحت خيمة .

بين هؤلاء الضيوف العابرين كان « خليل أفندى » حاكم المديرية ، وقد اتصلت به اتصالا وثيقا ، وعادت على صداقته بتقدير سكان المنطقة واعتبارهم ، وكثيرا ما كنت أدافع عن قضاياهم أمام محكمته . وكان خليل أفندى قويم النفس عادلا ، متدينا دون تعصب ولياً نزيها ، يتحلى بصفات عالية لم يكن أحد يفتن إليها فى المنصب المتواضع الذى كان يشغله . وفى تلك الفترة أقبل « ماهوبك » أحد أصدقاء الباشا ، أحد الذين زاملوه فى حمل السلاح منذ الحملة الفرنسية ، فانفق فى الأقصر ثلاثة أشهر لتنشيط إرسال محصول القمح إلى بلاد العرب . وأراد أن ينزل فى البيت الفرنسى ، ولكنه إذ علم أننى أحفل أجمل غرفتين فيه وأننى غير مستعد للنزول عنهما لى شخص كان .. أرسل فرجاني أن اذهب لأقبله . دعوة يوجهها لك « ماهوبك » كان معناها أمر صدرك وعليك أن تصدع به . لذلك لم يستطع المملوك الذى جاء يرجونى باسم سيده أن أمضى لزيارته تصديق ما رأى من رفضى . لقد أجبته بوضوح أن « البك » إذا كان يريد لقائى فهو يستطيع أن يتجشم عناء المجيء عندى . وتكررت الدعوة ، وتكرر الرفض .

وحمل إلى الدعوة فى اليوم التالى « الأب ترياندا فيلو » الذى حدثنى عن صديق محمد على فى عبارات شديدة الإطراء . ولما علمت أن « البك » كان مريضا وأعرج يتعبه صعود درجات سلمى الشاقة ، قبلت دعوته منبئا إياه بالأسباب التى حدثنى إلى اتخاذ قرارى الجديد . واستقبلنى « ماهوبك » بحفاوة شرقية واستبقانى للعشاء وأطال إلىسهرة للتحدث فى التاريخ والسياسة .

وفى اليوم التالى ، بعد راحة القيلولة ، وريثما كان الخدم ينصبون خيمته ، رد « البك » الزيارة ، مريدا أن يرى الأعمال التى تستبقينى هكذا

وسط الفلاحين والأحجار ، محروما من كل وسائل الراحة التي توفرها الحياة الأوروبية . وباستعراض رسومي ، فهم كيف يمكن إعطاء فكرة واضحة صحيحة عن أهل وأشياء بلد من البلاد إلى أولئك الذين لم تتح لهم سبل الرحلة . ثم حظ الحوار - كما حظ في الأمس - على حديث فرنسا وانجلترا وروسيا الذي كان شغل الأتراك الشاغل إذ ذاك كما هو اليوم وبعد سفره علمت أن خازن داره قد منح خدمي كيسا (١٢٥ فرنكا) وكان « ماهوبك » لا يزال يتبع التقاليد الشرقية العتيقة ، فتعلل بأنني ضيف محمد على وبالتالي ضيفه هو وأرسل لي صندوقين من أجود أنبذة فرنسا وآخر من المربي والحلوى التركية .

وأثناء مقامه أفضى النظر في رسومي وفي أبحاثي مرارا بالحديث إلى ذكر أبهة المصريين القدماء وقوتهم . فرغب في معرفتهم ، وراق لهذا الرجل الذي طالما مر أمام آثار الوثنيين مبتسما في إشفاق واحتقار أن يتأملها بانتباه . وكوفئت سخرتي في مرافقته مرافقة الدليل ، فقد عادت على العالم بحفظ مدخل هيكل الكرنك الذي أمر الباشا باستغلاله في تشييد معامل البارود بالمنطقة . وإجابة لرجائي أمر « ماهوبك » بالبحث عن مواد البناء في غير ذلك المكان وانقذ الكرنك من تحطيم وشيك .

وكنّت أنفق جميع سهراتي تقريبا في صحبة هذا الرجل الطيب طيلة مقامه بالأقصر . وكان في النهار بعد تصريف الشؤون يسأل قارئاً أن يقرأ له « سيرة نابليون وحملاته » وهو كتاب كان قد ترجم أخيرا إلى اللغة التركية بأمر الباشا وكذلك كتاب الأمير « لمكيافيلي » . فإذا حان المساء وجبت مناقشة ما جاء بهذين الكتابين ، فمن تتبع مسير الإمبراطور على الأطلس إلى الإجابة عن أسئلة طويلة ، مع عدم التردد في أي جواب لكي لا تفقد في نظر أمثاله قدر ما أوتيت من علم على قتله . وكان ينبغي أن تستطيع في الحال ذكر عدد سكان الإمبراطورية الروسية بكل دقة وعدد رجال جيشها ومبلغ دخلها وحدود أرضها . وكان ينبغي أن تقول - دون أن يبدو عليك الاضطراب - كم تبعد الشمس عن الأرض ، وما سرعة الصاعقة أو سرعة قذيفة المدفع ، وكيف كان زى جنود الإسكندر ، ولماذا لم يستخدموا البخار بدل البارود ، أو لماذا لا تتصل الحركة اتصالا دائما ، وما السرف في عدم وجود حجر الفلاسفة .. موجز القول انه لم يكن لك بد من أن تملك معرفة موسوعية حتى ترضى جميع الأسئلة التي تتوز أثناء الحديث .

وفضلا عن رغبته في التثقيف كان « البك » سيد الرأى كبير الحيدة والتسامح ، ذا نظرات شخصية فى الامور تخلع عليها مظهرا جديدا مما كان يعوض جليسه بعض الشيء عن ملل تلك السهرات الجارية على وتيرة واحدة والتي كثيرا ما كان يختتمها بسؤالى عما إذا كان الله قد وضع حدودا لذكاء الإنسان .

وأما فى أسلوب الحكم والإدارة فقد كان « ماهوبك » يتبع اخطاء مولاه الذى كان معجبا به إعجابا حقيقيا . لقد أطلق فى المهمة التى جاء ليقوم بها فى الصعيد كل الشدة التى يفرط فى استخدامها عمال الباشا . وقلما كان يلجأ إلى العقاب بالضرب ، ولكن الناس كانت تعلم انه يعاقب بالقتل دون مراجعة فكان الجميع يرتعدون أمامه .

ولقد أعطتنى علاقاتى تلك بـ ماهوبك وكذلك علاقاتى بـ خليل أفندى حاكم الاقليم منزلة عندهما كنت أستخدمها فى سعة إذا استدعى الأمر أن يحترم العادون حقوقنا .



Chants funéraires (narr.)

الجل يا خيال والعديا وراذه والله سبيح ومانع ما جابتوا ولاده يا موه يا م قتل
 شرابك فين شرابي على الطيار يا هوار يا دنيا يا غناره ودينه فين
 اليم الله كلها لله والله الفراق صعب ما حل اسم الله على الغنور وشابه من رقت
 العيان وقرابه اسم الله على الغنور وقيله من رقت العيان وردمه —
 يا ختموا قاعه على كرسها مستنيا سيدها يقطع قنا ويراها يا ختموا قاعه على الكريبي
 مستنيا سيدها لما يجي ويفتي — قالوا لاهل البلد غرلوه هروا وطافه وعكره دلوه
 قالوا لاهل البلد رحلوا هروا وطافه وعكره قتلوا —
 ليت المصلي ما يصلي اليوم همل صلاته وانكى للنوم ليت المصلي ما يصلي ابراهم صلاته
 وانكى رفته ادوا المصلي الاربقي والسبعة يصلي صلاة العصر والجمعة —
 دبح الديبحة راح وخلاها جاتوا سر ب حيل دلاها دبح الديبحة راح وهملها جاتوا
 سرت حيل قتلها — فابت على احد نصف الليل فزارني عايق دقها له زين
 يا موهي فاشي عليك عايق عوده مخيش ديرب على الراني يا موهي فاشي عليك
 شلبي عوده مخيش والبلبله ذهبي

رثاء

(صفحة من وثائق إدريس أفندي عن الأقصر)

الفلاح

الزارع المصرى طويل القامة ، قوى البنية ، متناسب الجسم ، منتظم التقاطيع صحيحها . تتوقد بالحياة عيناه السوداوان الغائرتان فى محجريهما والمرتفعتان بعض الارتفاع نحو الجبين ، وقد تعبران تعبيرا وحشيا لولا الأهداب الطويلة التى تلطف من قدحهما . وهو قوى الشفتين ، جميل الأسنان ، ينتهى وجهه البيضائى المستطيل بلحية سوداء مجمدة غير كثيفة . وفلاحو مصر العليا نحاسيو البشرة جفاة الطبع صفراويو المزاج ، أما فلاحو الدلتا فأنصع بشرة بكثير وذوو مزاج لمفاوى .

وفى مظهر الفلاحة وملامحها يجد المرء تشابها كبيرا بين شعب مصر الحالى والصور المنحوتة على الآثار القديمة . فكما تبدو لك تماثيل إيزيس ، تبدو لك مصريات اليوم . وهذا التشابه الذى لا جدال فيه يؤدى إلى استنتاجين طريفيين ، أولهما يتعلق بالفن ويمكن استخدامه عند الحاجة مقياسا للحكم على ثمرات العبقرية المصرية ، وثانيهما ينتمى إلى العلم ويؤيد ما ذهبنا إليه أنفا من أثر المناخ فى العادات .

أما عن النحت فنستطيع أن نشهد بأن الفنانين فى عصر الفراعنة كانوا يستوحون الطبيعة مباشرة ، ويجيدون استيعاها فيما نراه فى مصر من نماذج مانحتوا من تماثيل الآلهة . وأما عن العلم فنستطيع أن نقول إن تشابه نساء مصر القديمة ومصر الحديثة يعد امتزاج الدم الأصيل مرارا متعاقبة ، يؤيد الرأى الذى يرد ظهور الصفات الثانوية أى الأنواع الناشئة عن كل كتلة إلى الظروف الخارجية التى تحوط جنسا من الأجناس .

على أن جمال الفلاحة أقل دقة وامتيازًا من جمال الفلاح ، ونظرتها أقل من نظرتة ذكاء وعمقا ، وإن كان وجهها حسن التقاطيع مشرقا حيا كوجهه . وسحر الفلاحة قبل كل شيء فى رقتها الحلوة . وهى طويلة القامة رشيقة مرنة ، خفيفة المشية حثيثة الخطى . ولكنها إذ تتزوج عادة فى الثالثة عشرة من عمرها ، لا تكاد تبلغ الخامسة والعشرين حتى تزوى نضرتها من أتعاب الأمومة ومعاناة اليأس .

من ذا الذى يصدق أن من هؤلاء الأزواج الحسنى الملامح ، الوسام
الطلعة يولد أبناء ضعاف مهزولون كسيحون ، ديممو الوجوه رهيفو
الأطراف متفخو البطون - مخلوقات تعسة تهلك غالبيتها الكبرى قبل أن
تتم العام الأول من حياتها .

ينبغي التماس أسباب هذا الشذوذ فيما اجتمع على الفلاح من الفقر
والقذارة والمعتقدات الفاسدة . لن يرى الناظر شيئا أقيح من هؤلاء
الأطفال العراة الذين لم يغسلوا وجوههم فى حياتهم قط وقد حاصر الذباب
جفونهم . وإذا أضفت إلى الأسباب الرئيسية ما يعتقد الفلاح من خرافات
يطبقها ويستعين بها لشفاء أبنائه أو لوقايتهم من كل أذى ، وضحت لك
علة الموت الذى يحصد تلك النسبة الهائلة من الشعب الزارع . ويواصل
من بقى منهم على الأرض حياة مريضة حتى سن المراهقة ، وفجأة ، دون
فترة انتقال تقريبا ، ترى أولئك الصغار الديميين قد أصبحوا رجالا وساما
وفتيات حسناوات ! .

وان من انشط العوامل المؤثرة فى الأطفال نظام التغذية . ولما كان
الفلاحون جهلة وفقراء ، فليس فى وسعهم الحصول على غذاء صحى
مقو . ويكاد غذاؤهم بأكمله أن يكون نباتيا ، فهو يتألف من قليل من خبز
الذرة ، غير مختمر وسيء النضج ، ومن الفول المسلوق ، والكوسة ،
واللفت والتمر والغض من الأعشاب . ويضيفون إلى ذلك من المواد
الحيوانية شيئا من الجبن غير الدسم ، وقليل من السمك وفى النادر جدا
قطعة من اللحم ، ولكنها تكون فى هذه الحالة فاسدة وأضر بالصحة من
عدمها .

والشراب الوحيد الذى يتناوله الفلاح - ولو كان ميسور الحال هو ماء
النيل ، وفى القرى النائية عن النهر يأسن هذا الماء فى قاع الحفر التى
لا تطهر أبدا فلا يقل غضاضة عنه فتكا بالبدن .

وليس لأسرة الزارع من ترف إلا تدخين « الجوزة » واحتساء القهوة .
فالفلاح يدخل دائما تبغا محليا لم يجتز إلا تقطيعا بسيطا ، ذا عطر عذب
جدا . والتدخين - كما هو شأن كثير من عامة الشعب فى أوربا - يسكره
ويقويه فى آن واحد . وأما القهوة التى يشربها الفلاح ، فهى مركزة
وبلا سكر ، فتنتج أثارا من نفس النوع ، إنها تمنح أولئك البائسين القوة
التي لا يعتمدونها من أغذيتهم .

ومنذ يظن الزارع العربى أنه ضمن لأسرته ما يقيم الأود ، يهوى من جديد إلى الخمول الأكمل ويعمل أقل ما يستطيع أن يعمل . وهكذا تراه تارة نشيطا لا تقعد له همة ، يخوض الوحل أو يظل فى الماء ليل نهار ، فى سبيل تلك الكسرة اللازمة من الخبز ، حتى إذا حصد المحصول تراه فى سكون شامل لا يتحرك أيا ما بتمامها ، قابعا تحت نخلته يدخن « جورته » الأبدية . هناك الماشية فى الطين والبيت فى حاجة إلى ترميم ، والرجل وزوجته وعياله بلا ثياب يرتدونها ، بل والخبز غير كاف لهم فهم صفر الوجوه هزيلو الأجسام ، ولكن الفلاح مع هذا كله لا يعمل إلا بالتهديد أو إذا ضربه عمال السلطة العليا .

ورغم الركود الذى ينفق فيه الفلاح حياته عن عمد ، فإنه فى الريف أشد حياة منه خمولا ، وأقرب إلى المرح منه إلى الجد . يخاطبك محركا يديه فى قوة بإشارات معبرة ، ويحدثك متلفظا بلغته الخشنة الشديدة المخارج ، فاللغة العربية فى فمه جزلة ، عنيفة الأصوات ، وعرة المقاطع ، على حين انها حلوة موسيقية رقيقة على شفتى صاحبه .

* * *

والفلاحة فى الواقع شديدة الصبر عن عاطفة ، خاضعة ، حنون . وهى تعاون زوجها فى عمله الشاق . وإذا حدث أن سجنّت السلطة الزوج ، أخذت رضيعها وجاعت عند نافذة السجن تخاطبه وتلقى أوامره ، ثم تمضى فتنفذها فى أشد وفاء . وما أكثر ما تجد التعسة من فرص تتجلى فيها دلائل إخلاصها . فإن الفلاح المصرى ، وقد أبهظته الضرائب ، موضع ضغط موظفى الباشا يلا هواده ، من أعلاهم إلى أدناهم : طالما ملك الفلاح قروشاً طمع فيها هذا أو ذاك من طغاة المتسلطين عليه ، وأجبروه على دفعها ، غير أن الفلاح يقاوم فى إباء ، فيكون « الكرياج » أو السجن جزاءه .

ولا يستطيع أى إجراء أن يخلصه من العقاب البدنى ، فهو عقاب مباشر ، وكل ما يستطيع أن يناله من تخفيف لا يتجاوز تقليل عدد الضربات التى توقع عليه . وأما السجن فالمرأة تستطيع أن توجز مدته أو تهون من قسوته ، وفى سبيل ذلك تستخدم جميع ما أوتيت من دهاء فى التصرف وبلاغة فى القول . ولكسب رضا الشيخ ، تبيع حليها إذا كانت لم تزل تحتفظ بشيء منها ، وتنزل له عن بقرتها أو جاموستها أو حمارها .

* * *

والفلاح وزوجته يعيشان فى عذاب متصل : فليس من حد يقف ادعاء الجبابة ولا جشع رجال الإدارة واختلاسهم مال الأهالى . انهم قد ينتزعون من أسرة الفلاح غدا ما تركوا لها اليوم . ومهما حسب الفلاح من حساب ، فلن يستطيع تدبير ما يضمن له المستقبل .

إن سعر القطن والنيلة والقمح والأرز المزروعة للحكومة يحدده الباشا كما يريد ، وإذا كان الاحتفاظ بسعر العام الماضى كفيلا برزقهم فمن المؤكد تقريبا أن سعر العام الحالى سينتزع منهم كل كسب سابق .

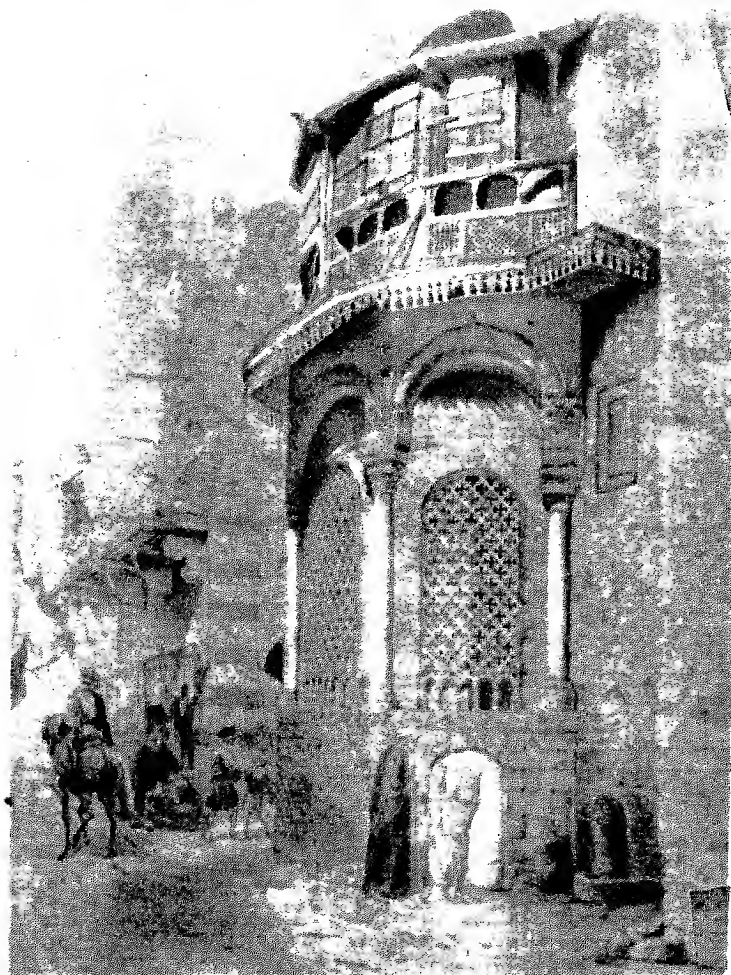
وليس للفلاح إلا ملاذ واحد إزاء ما ينهال عليه من الأذى ، ألا وهو الإذعان للقضاء والقدر . وتلك عاطفة دينية قد تغلغلت فى خلق الشرقيين الحاليين حتى ميزتهم بالتساهل والتهاون . إنه نوع من الاحتجاج العليل ينوم ما أوتيت الهمة الإنسانية من توثب طبيعى ، ويضع محلها نوعا من الشعور السلبي الراكد وتلك فضيلة مشنومة تستتبع الأدواء التى لم تفلح فى أن تعالجها إلا علاجاً فاسداً .





فلاح وفلاحة :

(بريشة : إدريس أفندي)



سبيل في شارع أمير الجيوش
بريشة : إدريس أفندي

■ الجزء الثاني ■

من محمد علي إلى إسماعيل



● محمد علي باشا ●

شخصيته

الوالى شديد الولع بالمجد ، ولذلك يتحدث بكبرياء وشغف عن أيامه الماضية . انه كثير التفكير فى البهاء الذى يحيط اسمه أثناء حياته . ويظن ان هذا الصيت سيعمر بعد موته

وهو حريص على أن تترجم له معظم الصحف الأوروبية ، ويبدو عليه الألم من النقد الهين أو اللانزع الذى كثيرا ما تتناول به الصحف أعماله أو قيمته الشخصية . ويوقن أن مهاجمات الكتاب له قد أساءت إليه شر الإساءة ، ويرد إليهم - إلى حد كبير - ما أصابه أماله من خيبة . وقد روى شخص جدير بالثقة أن « حسين بك » قد سمع محمد على ينسب معارضة فرنسا وانجلترا لمشروعات استقلاله إلى تأثير جريدة « الزمير » قبل كل شىء ، فقد اطنبت هذه الجريدة فى إذاعة هجائه والافتراء على حكومته ، وأضاف الباشا قائلا :

— إننى لأعطى راضيا مليون ريال فى سبيل منع هذه الجريدة من الظهور . وانها غلطة منى هى التى سمحت بوجود هذه الجريدة ، فقد كان محررها تحت تصرفى مدة طويلة ولكنى صددته .

وقد سلبته انفعالات حياته السياسية كل راحة . فهو ينام قليلا ، وهيهات أن ينام نوما هادئا . ويسهر إلى جانبه دائما عبدان ليعيدا عليه غطاءه الذى يدفعه عنه بلا انقطاع .

ورغم قصر الوقت الذى يخصصه للنوم ، فهو دائما فى نشاط قلما تجد له نظيرا . فى الساعة الرابعة صباحا تراه ناهضا ، واقفا على قدميه ، ليقضى نهاره كله مع نظاره أو مستعرضا فرق الجيش أو مفتشا على أعمال البناء أو أعمال أى مؤسسة يروقه أن يراقب إدارتها .

وهو يجيد الحساب وان لم يكن قد تعلم الحساب قط . ومعروف انه كان قد بلغ الخامسة والاربعين من عمره حين بدأ يسعى إلى تعلم أول مبادئ القراءة والكتابة . ويقال ان جارية من جوارى حريمه علمته حروف الهجاء ، ثم قام شيخ بتعليمه الكتابة . وتلك إحدى الخصائص المميزة لحياته ، وهى جديرة بالذكر حقا إذا فكرنا فى المشاغل السياسية الخطيرة التى لا بد كانت تستغرق ذهن هذا الرجل .

وهو جذاب فى مجالسه الخاصة ، محب للاستطلاع ، تدل أسئلته على جهل ساذج مع إظهارها لكثير من الدهاء والفهم . وفى محادثته أحيانا

كلمات موفقة تلقيها بديهة حاضرة . فقد أشاد أحد القناصل ذات يوم بلوحة الرسام « هوراس قرنيه » التي تمثل مذبحه المماليك ، والتي أثارت إعجاب الجميع في متحف باريس ، فقال الباشا :
— يستطيع الرسام أن يجد نظيرا لموضوعه في مذبحه ممالك بونابرت بمرسليا .

عسف الاستبداد

وطبعه مستبد عنيف . ولكنه - كجميع الشرقيين تقريبا - يستطيع أن يملك نفسه في معظم الأحوال ، وأن يقود الأمور بمهارة إلى الوجهة التي اعترزم بلوغها . وهكذا تجعل منه حدة مزاجه رجلا جسورا مقداما ، كما تجعل منه قدرته على كبح حدته عند الحاجة قائدا ماهرا وتعطيه فن الإمرة حسب الظروف .

وعلى الرغم من سرعة غضبه ، فإن طبيعته طبيعية كامنة تحول أحيانا دون توقيع عقابه . وتحمله سماحة قد تبدو لنا لونا من التهاون إلى العفو والرضا بل وإلى نسيان أقدح الأخطاء . وقد أملى عليه هذا الميل نحو العدالة والحلم أهم القرارات الإدارية ، ألا وهو القرار الذي يحرم الكبراء من الامتياز الصارخ الذي كان يخول لهم معاقبة عبيدهم وتابعيهم بالإعدام . فقد أراد أن يكون ذلك القصاص مصدقا عليه من الوالى قبل تنفيذه ، واضعا بذلك حكما بين المتهم والقاضى ، وفترة أجلب للسلامة بين وقوع الذنب وتوقيع الجزاء .

على أن استبداده قد يشتط أحيانا إلى حد عجيب . وتسجل هنا مثلين غريبين لذلك :

من بين النباتات النادرة التي وردت لمحمد على من أوربا ، كان غرس لزهرة الداليا . غرست تلك النبتة في قلب الأرض ، في موضع تغمره أشعة الشمس الساطعة بعيدا عن كشك الباشا الأثير ، فازدهرت واينعت ، دون أن يتنبه السيد إليها . غير أن أجنبيا تحدث يوما عن جمال تلك الزهرة ، فلاحظ محمد على للمرة الأولى أنها جميلة وأمر بأن توضع النبتة في صندوق ، وتنقل تحت شجرة الجميز التي تظلل كشكه . وهنا اجترا البستانى على الاعتراض بأن الزهرة قد تموت من هذه العملية ، فقطب

أن يخطر له انها واحدة من تلك اللواتي أوصى بها وصايا الصارمة .
وبعد ذلك بأيام ، اقبل الباشا على البستان ، ومضى راسا قبل كل شيء
نحو شجرة البرقوق . ولم يكن عليها برقوق ! وقبل أن يستطيع امرؤ أن
يشرح للباشا علة ذلك الاخفاء العؤسف ، كانت قد أخذت الباشا رعدته
العصية وهى الظاهرة التى تصحب أعنف غضبه ، وكان المدير قد طرح
أرضا - بإشارة منه - وعوقب بالعصا عند أسفل جذع الشجرة . وأخيرا
تمكن الرجل المسكين من أن يجد أذنا صاغية ، وجيء بشهود فسمعت
شهادتهم ، واستدعى الخصى . وصاح به الباشا منذ أن لمح آتيا من
بعيد :

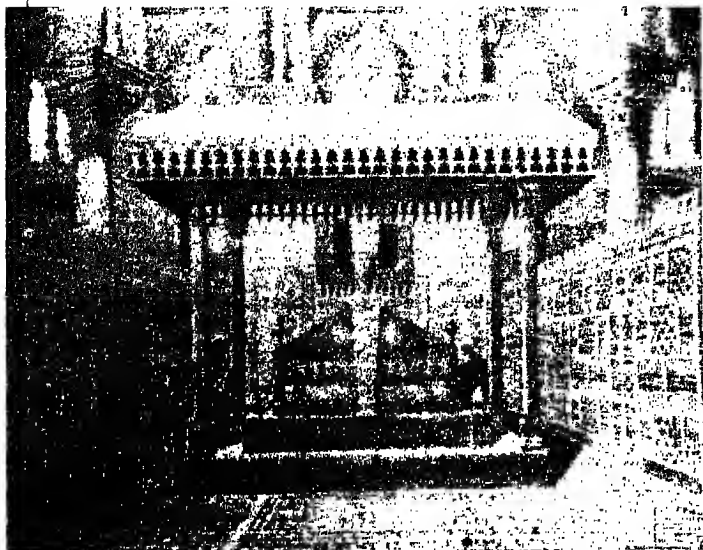
— هل أنا أكلت برقوقة ؟

— نعم يا صاحب السمو ، لقد قدمت لكم واحدة على مائدة الإفطار منذ
بضعة أيام .

— ولم لم تنبهنى إلى ذلك !

وإذا رأى الخصى الحركة التى صاحبت تلك الكلمات . اندفع إلى
الجواد المسرج فى بذخ - جواد الباشا - وتوارى سريعا خلال الحقول
قبل أن يحاول أحد أن يتعقبه . وظل المسكين مختفيا عدة أيام . ولكن
الباشا تكرم بالعفو عنه حينما تشفع له فيه بعض المقربين .

* * *



ظالم باشا

ولنبادر فنعلن أن الوالى ، رغم نزواته الاستبدادية ، قد برهن فى ظروف كثيرة على ولاء جم ونبل صحيح . فهو لم يوافق قط على أن يسلم للباب العالى الثوار العديدين اللاجئين إلى ولاياته ، بل حمى فى ورع - أثناء ثورة اليونان - أولئك اليونانيين الذين كانوا فى مصر وبقى عليهم فى وظائفهم . استنادا على هذه الشواهد العارضة ، ومع ذلك فإننا نتورط فى الخطأ إذا قلنا ان فى ذهن الباشا أفكارا منطقية عن العدالة وان فى قلبه حبا حقيقيا لها ، وانه قادر يوما على أن يشتغل اشتغالا جديا فى ولاياته برعاية الحقوق الطبيعية للإنسان ، وإن كان قد مجده البعض لأنه أراد أن يفرض على جميع رعاياه بلا تمييز شريعة حامية ، ووضاية تقوم بها إدارة منتظمة للقضاء .

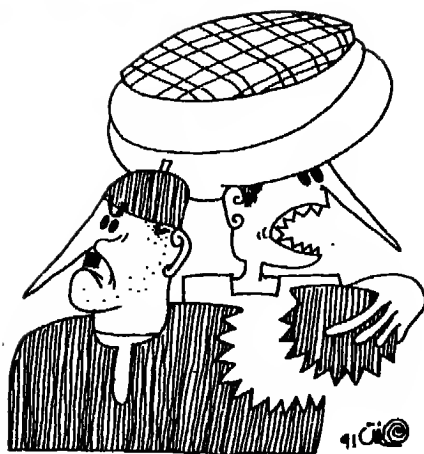
إن القانون الذى اذاعه محمد على ، والذى اطلبه المطنبون فى الإشادة بحكمته وتمشييه مع روح الحرية ، لم يوضع يوما موضع التنفيذ . ويدعو الفلاحون محمد على باسم « ظالم باشا » . ولقد كانت تلك تضحية من ظالم باشا بصيته ، نزولا على مقتضيات مدح المادحين الذين حثوه على اتخاذه . ولذا سرعان ما أهمل هذا القانون بعد تشريعه . وإذا كانت بعض اتجاهاته قد طبقت ، فإن ذلك لم يكن إلا فى مناسبات نادرة ، فى الأحاد التى لم تكن فيها مصالح الباشا المباشرة أو غير المباشرة تقع تحت طائلة نصوصه . وما كان يستطيع غير ذلك ، وإلا كان عليه أن يطيح أولا ، دون تردد ، بأمثائه ، دعائم سلطته ، وأن يحرم على نفسه عددا كبيرا من المظالم .

واضع القانون ينتهكه : جناية مصطفى مختار بك

ولعل أول مجرم كانت هذه النصوص الجديدة خليفة
بان تناله هو أهم محرريها ، « مختار بك » ، الذى رغم
تربيته فى فرنسا لم يفقد شيئا من الأدواق الجنسية
الشائنة التى يتصف بها أهل بلاده . [مصطفى مختار
مولود فى مدينة قوله أيضا] . فبعد فراغه بأيام
عشرة من نقل تلك القوانين ، هاج غضبه إذ صد
شهواته المنحلة فتى عربى من خدمه صدا قاطعا ، فأمر دون رحمة بضربه
حتى مات التعس تحت العصا .
ولقد رأى ظالم باشا حين بلغه نبأ هذه الحادثة - كما لا يزال يرى ذلك
كثير من الكبراء فى مصر - أن « رأس فلاح لا تساوى شعرة من رأس
تركى » .

وبالرغم من النصوص الصريحة الصارمة الواردة فى التشريع
الجديد ، لم يكن على « مختار بك » من بأس إلا أن يدفع دية قدرها
٥٠٠ قرش أى حوالى ١٢٥ فرنكا ، وهو مبلغ أقل من مرتبه عن يوم واحد .
وهكذا ترى أنه بهذا السعز يستطيع أن يقتل ، دون قلق ، أكثر من ثلاثمائة
وخمسة وستين رجلا فى السنة . ولعل هذا الحكم - فوق ذلك - لم يصدر
إلا رعاية للمظاهر ، فليس من المؤكد أنه قد تنفذ وأن عائلة الضحية
قد تمكنت من قبض ذلك التعويض التافه .

* * *



قتل وتعذيب

وليست تلك هي الواقعة الوحيدة التي نستطيع أن
نكشف عنها الحجاب ، بل إن هذا النوع من الوقائع
متواتر : فلكي يثار لمعارضة مشابهة أو لسبب آخر
لا مسوَّغ له ألقى « سليم باشا » بأحد مماليكه في
الماء ، وقتل « ماهوبك » أحد مماليكه تحت العصا .
وفعل مثله « شكرى أفندى » . ولم تنل جنایات القتل

هذه أى عقاب إلى الآن .

لقد انقضى عامان منذ نشر هذا التشريع الذى راق للبعض أن يروا فيه
عربون عهد من المساواة المدنية والسلامة الشخصية لجميع أهل الولاية
وسكانها الأجانب ، ولكن مازال رجال السلطة يعذبون الفلاحين بالقرميد
الأحمر المحمى فى النار ، ومازالوا يسمرون أذانهم ، ويمزقون أجسامهم
بضرب « الكرجاج » لإرغامهم على دفع الضرائب والاتاوات للباشا « أكل
الشعب » فهو خليف بهذا اللقب الذى أطلقه هومير على أحد ملوك
اللياذة .

* * *

دستور الابتزاز

ان الاختيار الحقيقي لنظام حكم شرعى ، وتقليد
الرعايا حق الرجوع إلى سلطة الدستور ذات
السيادة ، وخضوع رئيس الحكومة وعماله للحكم
الأعلى الذى يصدره عن قضاء نزيه ولا مهرب منه ،
كل ذلك لو تحقق لكان شر ضيق يصيب إدارة الوالى
واسلوبه فى التصرف . ولا شك فى أنه استحق إلى
حد ما لقب « ظالم باشا » الذى منحه إياه الشعب وقد أصبح على يديه فى
درك من البؤس لا يستطيع معه أن يمنحه أقدح منه .

* * *

ودون أن نستعرض تلك السلسلة من أعمال الطغيان التى عادت عليه
بذلك اللقب ، حسبنا أن نلاحظ أن روح محمد على فى فرض الضرائب
والنهب وعدم النزاهة فى ابتزاز المال روح لا نظير لها . انه لا يود أن
يدفع مرتبات لأحد ، لا للجيش ولا للموظفين ولا للعمال ، ويود أن يدبر
أمره بحيث يخدمه الجميع مجانا ما استطاع إلى ذلك سبيلا . فالضباط
المدنيون والحريون ، والجنود والعمال يلاقون أشد العناء فى تحصيل
مرتباتهم وأجورهم ، وقلمما يقبضونها نقودا ، بل يجدون أنفسهم مرغمين
فى أكثر الأحيان على أن يقبلوها سلعا خارجة من مصانع الباشا ، مرغمين
بعد ذلك - للحصول على نقود - على أن يبيعوا بثمن بخس تلك السلع
التي حسبها عليهم الباشا بثمن باهظ .

لا توجد نقود فى خزائن صراف حكومى يقدم إليه امرؤ « تذكرة » أى
إذن صرف ، وإنما هو يفتح ما لديه من مخازن للمطالب بحقه . ولهذا
الأخير أن يختار - إذا كان ثمة مجال للاختيار - وأن يخضع للسعر
المفروض . ويتوجه الدائن الذى لا يناسبه أن يأخذ مقابل حقه بعض
منتجات مصانع الوالى - يتوجه إلى المرابين الذين يخصمون ورقته
المالية بتخفيض قيمتها الاسمية تخفيضا كبيرا تتقاضى عنه السلطة
الصناعية ضريبة لولاها ما كانت تاذن بهذه المعاملة .

* * *

تدمير المعدات .. على حساب الجيش !

ويكفى ذكر هذا المثل الملحوظ بين جميع ما تفتقت عنه حيلة محمد على في سبيل الخوال دون أن يفتح كيسه ، وانه ليدل على خصب قريحته في التلقيات المالية : فبعد أن أخذ الأوروبيون عكا ، رأى إبراهيم باشا تعذر الاحتفاظ بسورية إلى أبعد من ذلك الامد ، فارسل الأمر إلى جميع القوات بأن تنسحب نحو مصر ، وأن تدمر قبل رحيلها جميع ما يمكن أن يستخدم ضدها . وهكذا هدمت الحصون ومعامل البارود وأحرقت الخيام . وكسرت المدافع ، ودمر العتاد الذى كانت قد زودت به ، بل لقد ذهبوا إلى حد تكسير البنادق والسيوف التى يموت حاملوها من الجنود . وعندما وصلت القوات إلى القاهرة قدرت جميع الخسائر التى أسفر عنها هذا الإجراء الذى نفذه المرءوسون صادعين بأمر رؤسائهم تقديرا دقيقا وظهر أن قيمتها تعادل حصيلة مرتبات فرق الجيش لمدة ستة أشهر . وأراد الباشا خصم هذا المبلغ من مرتبات أولئك الرجال الذين قاسوا كل عناء ومشقة . ولم يكن بد من أن يحتج سليمان باشا بشدة حتى يحول محمد على عن رأيه العنيد ويقنعه بالعدول عن ذلك القرار الغريب .

وفهم الباشا بعد لاي أنه لم يكن على الأقل من حسن التصرف أن يتعدى الحدود بهذه المصادرة الاستغلالية التى كانت خليقة بأن تأثير سخط جيش لم يزل مصير الوالى متوقفا عليه بين لحظة وأخرى .

مبدأ « الشعب كالمسمسم »

ويبدو لنا فى وضوح أن وضع واحترام النظم التى تكفل حماية الضعيف والمظلوم شيء يتناقض مع تلك الميول . ولو قد توافرت نية فعل الخير واعتاق اهل مصر المسخرين وإسعادهم ، لما احتاج الأمر بعد ذلك إلى محاكاة نظم الغرب وإخلاقه ، إذ أن فى آيات القرآن من الأمر بالمعروف ما يكفى لهذا كله ، ولا اقتصر العمل على اتباع وصايا النبى وأوامره . وبين المراسيم المفصلة التى جاءت فى الكتاب الشريف ما ينكر ألغصب والاحتكار ويعاقب عليها عقاب السرقة تقريبا . ولكن يبدو أن محمد على استمد وحيه الفعال من المثل القائل :

» إنما الشعب كالسمسم ، ينبغي أن تطأ وتسحقه لكي تخرج منه

* * *



ثورة الصعيد

زاد محمد على الضرائب زيادة فادحة أثارت تذمر الأهالى . الفلاحون الذين انتزعهم الوالى من عائلاتهم ومن حقولهم وحشدهم فى كتائب الجيش أو المصانع ، باتوا يلعنون تلك النظم التى تعتصرهم دون أن تسفر عن أى مكافأة لهم أو أى نفع يعود عليهم .

انتشر السخط بين الناس . وانطلقت الثورة فى الصعيد فى أوائل سنة ١٨٢٤ إذ خطب أحد أولياء « دراو » فى الجمهور أثناء صلاة الجمعة والهيب عصبية الملاً . وشاعت المصادفة أن تنضم إلى جموع الساخطين عدة فصائل من الجيش الجديد كانت سائرة إلى « سنار » لتحل فيها محل ما بقى هناك من الجنود غير النظاميين .. وهكذا كان الجيش عوناً قوياً للثائرين . وسرعان ما اقبل على حزبهم مئات من الفلاحين فبلغ عددهم حوالى عشرين ألف رجل . . .

غير أن هذه الثورة فى مظهرها لم تنتج من العواقب الوخيمة على الباشا ما كان يتوقع المرء منها ، بل أدت على النقيض خدمة للوالى الذى بدا أنه من شدة البطش بحيث يستتب له الأمر . ذلك أن الثائرين ، وقد ساروا إلى غير هدف محدد ، تحت قيادة رئيس غير كفاء لم يستمد شخصيته من غير التعصب ، لم يلبثوا حتى فقدوا فى ملاحم متفرقة نحو ثلث قواتهم ، وأجبروا على العودة إلى النظام وعلى الخضوع - بعد هزيمتهم - لاستبداد أثقل وطاة مما عرفوا قبل القيام بثورتهم .

* * *

الشعب يحاول عزل محمد علي

ومادما قد سجلنا اللعنة التي تتردد على شفاه
الفلاحين بلا انقطاع ، فلا بد لنا أن نحاول تعليل تلك
الواقعة التي أعارها الرأي العام أهمية كبيرة ووضي
لها ضجة شديدة في حينها ، ألا وهي المطالبة
- المزيفة - بتثبيت محمد علي .

بينما حاول المصريون معبرين عن شعورهم الإجماعي أن يسعوا لدى
الباب العالي سعيا رسميا منوسلين عزل حاكمهم ، حدث فجأة تحول
واضح في اتجاه العقلية . وكان ذلك بطريقة سريعة وفعالة . ففي منتصف
نوفمبر عام ١٨٠٤ ، استدعى الوالى إلى القاهرة جميع نظار وشيوخ
الأقاليم المصرية واجتمعوا في القلعة ، حيث خطب فيهم « حسين باشا »
- الذى أسندت إليه مهمة رئاسة الجلسة - خطبة بليغة عن ضرورة إدخال
إصلاحات فى إدارة الأقاليم للتخفيف عن الشعب ، فانار أمام سامعيه أفقا
سعيدا . وبعد تلك الخطبة الخالصة ، تبسط فى أخذ رأى كل منهم ، وسمع
المطالب والرغبات ، وأغدق الوعود على الجميع ، ثم تصنع أنه مضطر
إلى مغادرة الاجتماع فى الحال على أثر تسلمه رسالة من الوالى ، ورجا
النظار والشيوخ أن يهتموا سريعا باختتامهم فى الجزء الأسفل من ورقة .
تعهد بأنه سيكتب عليها محضر مؤتمرهم متوخيا الأمانة فى ذكر جميع
مادار . ولم يجرؤ أحد من الموجودين على الرفض . وقام الباشا الأمين
بارتكاب تبديل « برئ » ، فقد كتب على الورقة البيضاء الممهوره بالاختتام
التماسا من ممثلى الشعب المصرى للسلطان عبد المجيد يرجون فيه
تثبيت محمد علي واليا على مصر . ورفع علماء القاهرة على أثر خديعة
أخرى مطلباً لنفس الغرض . فأى ثقة يمكن أن تعار هذه العرائض اللطيفة
المادحة ، التي أفسد بها صانعوها أمانى كثير من البسطاء ؟ .

ابن «قولة» البار

إلى جانب كثير من الملكات الملحوظة ، يتحلى محمد على بصفات الرجل الفاضل فى حياته الخاصة . إنه أب بار ، وصديق أمين ، ويندر أن تجد بين الأمراء الشرقيين مثل قصده واعتداله فى شهوته ونقاء أخلاقه . وتضفى عليه حساسيته الكبيرة شيئا مؤثرا يكتسب به فى يسر عطف المحيطين به .

لقد أثرت وفاة أولاده فى نفسه أثرا عميقا ، وكان الناظر إلى وجه هذا الأب يستطيع أن يتابع أثناء أمد طويل ما وسمه به الحزن من علائم الألم . وكثيرا ما ذرف دموعا سخيا عندما فقد رفاقا له فى الحياة العسكرية . وقد أشرك فى سعدة عددا كبيرا من أتراب الشباب ارتفعوا منزلة واغتنوا بفضل حظوته . ووجد بنو وطنه لديه ترحيبا كريما دائما .

وظلت ذكرى مسقط رأسه عزيزة عنده ، ويا طالما أظهر عاطفته واهتمامه نحو الربوع التى درجت فيها طفولته ! ويقال إن رعاياه المولودين فى «قولة» معفون من الضرائب ، لأنه يؤديها عنهم للخزينة . ويقال أيضا إنه أصدر الأمر بحفظ بيت أبيه وعدم التعرض له بأى تغيير . وما زال يعيش فى ذلك البيت اقرباء له قد غمرهم بنعمه .

* * *

الشيخ الشاب

يحب الباشا أن يذكر أنه يبلغ من العمر سنا أكبر مما يبلغ فى الواقع ، لكى يلفت نظر الناس إلى الفتوة التى مازال يتمتع بها . ففى عام ١٨٣٦ كان يقول إنه بلغ الثالثة والسبعين ، مما يرجع بمولده إلى عام ١٧٦٣ على حين أنه قد ولد عام ١٧٦٨ أو ١٧٦٩ .

ومن نافلة القول أن نذكر صفاته العسكرية . ويكفى ما يحدثنا به عنها المركز الذى بلغه . لن نضيف سوى القول بأنه فى حياته الخاصة كثيرا ما دفع الشجاعة إلى حد التهور . ولم تكد تنقضى الآن أربع سنوات أو خمس منذ رآه القوم يمعن على ظهر جمل فى رحلات طويلة شاقة وسط الصحراء ، أو يتحدى جنادل النيل ، ليزور «فزوغلا» . أى يبتعد عن عاصمته ستمائة فرسخ .

فى مصاف الأبطال !

يستفسر الباشا كثيرا - وهو من انصار الجديد - عن أمم أوربا ، تلك التى يحاكىها فى شىء من التصنع ، بل ويحاكيها فى أخطائها أيضا . وعلى الرغم من تلك النعرة ، مازال وطنه يؤثر تأثيرا ما على أفكاره وسلوكه . فهو يتحدث فى حماس عن مقدونية ، وعن الاسكندر بطله الأثير ، وعن البطالمة ، وكأنه قد أصبح من أعضاء الأسرة لمجرد أنه خرج من نفس الأرض .

ذات يوم روى بعضهم على مسمع منه لمحة من حياة الاسكندر ، فصاح فى فخر : « وأنا أيضا من فيليبية » (هكذا يدعو الأتراك أرض مقدونيا ، نسبة إلى فيليب أبى الاسكندر) .

ونابليون محل إعجابه كذلك . ولكن البطل المقدونى يستأثر أكثر منه بلب محمد على ، نظرا لما ذكرنا من روح اعتداده بأسرة يظن أنه أحد أفرادها . وترجمة حياة كل من هذين العلمين هى مطالعته المعتادة . غير أنه يضيف إلى موضوعات تأملاته أيضا كتاب « الأمير » لمكيا فيلى ، مازجا أمثلة البطولة بداء السياسة ، وقد أمر فترجم له هذا الكتاب خصيصا .

* * *

مصر وسيلته لا غايته

ولعل الآراء لم تتضارب فى الحكم على رجل تضاربه فى الحكم على محمد على . فقد رأى البعض فيه بطلا جدد عهده مصر ومدنها ، على حين جعل منه الآخرون مغامرا بارعا سعى للوصول إلى السلطة لغرض واحد هو السيادة واستغلال البلاد لمنفعته الشخصية لا أكثر .

ومهما يكن من أمر تناقض هذه الآراء ، فمن الواضح ومما ينبغى أن يعترف به الجميع أن محمد على مدين بمكانته وصيته لشدة فطنته ، واطراد مثابرته ، وقيادته الشاملة ، وعزيمته الكبيرة .

لا شك فى أن محمد على رجل ممتاز . ولكن هل كان غرضه حقا هو سعادة مصر ومجدها ؟ وهل حلت حكومة إصلاحية محل طغيان المماليك ؟ على هذا التساؤل سنحاول أن نلقى بعض الأعضاء .

من الخطأ أن يقال إن مصر قد تمدنت ، فهي لا يمكن أن تتمتع فجأة بهذه الصورة . إنما المدنية محصول سلسلة من العمليات المتتابعة ، ولا يمكن أن تأتي ارتجالاً في ربع قرن . وإذا لم ننظر إلا للنتائج في تقدير الأمور ، فإن المدنية تنتج رخاء مازالت مصر للأسف بعيدة عن أن تحظى به .

من الحق أن محمد علي حين أراد إدخال تجديداته في البلاد قد راعى العادات والمعتقدات والأوهام المتمكنة المستفحلة ، ومن الحق أن غير السلطان المتوجسة قد أقامت في سبيله عقبات يكاد أن يستحيل تخطيها ، وأنه كان عليه أن يتابع أعماله بأن يجند جيوشاً ويجمع ضرائب لا تتناسب مع طاقة البلاد الطبيعية ومواردها ، وأنه كان عليه أن ينظم البلاد بأن يلقي الأقاليم في الفقر كي يغذى حروباً لم تكن لتعود عليه إلا بالمجد الأجوف . يالها من وسائل عجيبة لتحضير البلاد ! .

لقد اعترض مصر بعنف أنهكها ، وتعقب المصري في صرامة شديدة ليجعل منه جندياً حتى لقد كانت القرى تفقر من أهلها كلما اقترب نحوها رجال التجنيد . على أن وجهة تفكير الباشا بين هذه المشقات جميعاً لم تكن تخفيف بؤس الشعب ولا إصلاح المفاصل التي بخسته قدره ، ولا تربية أمة جديدة أقل ذلاً وأكثر نكاء .

* * *

لقد أنشأ محاربين هزموا الوهابيين والعثمانيين ، وأنشأ بحارة وبنائين وعمالاً ، وأقام مخازن للسلاح ومصانع ومدارس ، ولكن هل صار الفلاح أكثر نظافة وأوفر غذاء وأحسن أخلاقاً وتربية ؟ لقد بات الباشا يتصرف في رؤوس مال كبيرة ، ولكن كيف حصل عليها ؟ أنه لم يحترم شيئاً : غصب مخلفات الممالك والمساجد والأوقاف والأموال الخاصة ، دون تمييز ، ومنذ أن أصبح السيد المطلق لوادي النيل الخصب ، غير زراعته وإدارته سعياً وراء غرض واحد هو زيادة موارده الخاصة . ولقد أضاف إلى استيلائه على الأرض احتكار الصناعة والتجارة ، فعدا المالك الوحيد والصانع الوحيد والتاجر الوحيد . ومن هذا السلطان العريض لم يستخرج سوى أبهته الشخصية . لم يستمد من ذلك كله إجراء فعالاً حاسماً ضد ما يرسف فيه شعبه من بؤس وجهل . بل ولم يعمل في مصلحة المنشآت التي أسسها حربية كانت أو بحرية أو صناعية ، إذ

لم يقدر مستقبلها ببعد نظر ثاقب حقا ، ولم يرصد عددا كافيا من التلاميذ للتهوض بها ومواصلة نشاطها بعد موته .

لقد استدعى محمد على من أوروبا عمالا فحضروا وبنوا سفنا واداروا ورشا مختلفة ، ولكن أهم ما فى الأمر قد اهمل ، فانهم لم يدرّبوا إلا عددا قليلا جدا من العمال الذين يصلحون للحلول محلهم .

أين تربية الشعب .. ؟

انشئت المدارس لتحقيق غرض عسكرى محض . وتخرج فيها نفر قليل من المؤهلين المقتدرين . وكيف كان يمكن أن يأمل المرء منها غير ذلك ؟ لم تكن توجد هناك العناصر الأعدادية ، وكان ينبغى فى طرفة رفع أشخاص - لم تتلق عقولهم تلك الثقافة الأولية التى تنتقل فى أوروبا من جيل إلى جيل بانتقال الحياة - إلى مرتبة استيعاب العلوم . إن صنع أطباء ومهندسين وأمثال أولئك وهؤلاء من شبان لم يكتسبوا المعارف العديدة المجردة والاستعدادات الملائمة التى ينقلها إلى نفس المرء تعليم تمهيدى تنمو تحت تأثيره ملكات الصبا ، تلك الأخيرة التى لابد منها لطالب الدراسات العليا .

إن صنع أطباء ومهندسين من شبان لم يكتسبوا ذلك فحسب ، بل ما تخيلوا يوما وجود المفاهيم التى أصبحت شائعة لدى طلبة المدارس الدنيا والعليا فى بلاد الغرب ، وإن محاولة تكوين عقول واعية - فورا - من مدارك ناشئة جانبت إلى أقصى حد مختلف درجات التعريف بمبادئ العلوم هذه التى باتت تحلق فى جو المجتمعات التى تحضرت فى بطن بحيث يبدو أنها أفكار وراثية لدى الفرد يستنشقها منذ مولده ، إن تصورا للأمور فى مثل هذا التهور لم يكن من شأنه أن ينتهى إلا إلى الإجهاض . لم يعرف محمد على فى حياته أى تربية أولية ، فورطه فى الخطأ اتخذه من نفسه مثلا ، واتباعه غريزة السيطرة . بدا له انه مستطيع أن يصنع العلماء كما جند الجنود بمجرد قوة إرادته ، على حين انه لو تمشى مع طبيعة الأشياء لاستطاع - وكان ذلك أقصى ما يبلغه - أن يعد لأمته من بعده ، بمعاونة الأساليب الخاصة لكل فرع من الفروع ، فئة متخصصة

من الشعب قادرة على أن تفهم النظريات وعلى أن تحاول تحقيقها .
لقد بلغت استهانتها بالتعليم ، إلى أخذه بعض التلاميذ من مدرسة
الفرسان لضمهم إلى خدمه . وفي عام ١٨٤٠ تخير ثلاثة من أفضل طلبة
الألسن ليعينهم طهارة تحت رئاسة كبير طهارة قصره ، وهو فرنسي .

* * *

تمييز الأتراك وتسخير الفلاح

لم يفكر محمد على قط في تمكين الشعب من التحرر . لقد احتقر هذا
الشعب دائما واحتقر لغته .. وجميع الرتب في الجيش من نصيب
العثمانية وعبيدهم ، وكذلك الحال في المناصب العامة .
أما المصريون ، شهداء الدولة ، فهم الألعبوبة الدائمة في أيدي رجال
الإدارة ، أصحاب الأمر والنهي ، والتصرف في قوم جهلة لا نصير لهم
ولا خوف من شكواهم وتذمرهم .

وهكذا يغش رجال الإدارة الزارع عند تقدير كمية ما تغل أرضه ،
بموازين ومكاييل زائفة . وإذا حل أوان البيع قيل للفلاح دائما انه لم يجن
إلا قطننا رديء الصنف من الدرجة الثالثة . وفوق ذلك ، يستطيع عدد غفير
من الموظفين أن يطالبوه مرارا بدفع مبالغ من المال ، فإذا امتنع كان
جزاؤه الضرب بالعصا ، وإذا أذعن ودفع فوراءه الكرياج أيضا لإرغامه
على دفع مبالغ أكبر . وهم يأخذون الفلاح في السخرة ، وبدلا من أن
يدفعوا له أجره يقولون له أن قريته مدينة للحكومة ، وتلك شريعة
التضامن ! .

* * *

البؤس لمصر الغنية

ولا يرجع سوء حالة مصر المالية إلى الحروب المتعددة الطويلة
فحسب ، بل إلى الإصلاحات التي لم تفهم فهمها صحيحا وإلى المشروعات
التي لم يحسن ولي الأمر تقديرها أو تعجل في تنفيذها ، وإلى رذائل
الإدارة ، وجشع الموظفين ، فإن هذا كله مما يدمر الثروة العمومية . وإنها
لعقبات في سبيل رخاء البلاد ، تضاف أضرارها إلى مصائب الحروب ،
وتواصل عملها الفاجر أثناء السلم .

وإذا ازداد رخاء المحصول في عام ، ازداد يؤس المصريين ، لأن محمد على يقوم إذ ذاك بعمليات أوسع . فمثلا في سنة ١٨٢٩ كان الشعب يموت من الجوع بينما تكدست جبال من الغلال تحت امرة الباشا دون أن يكون للمصريين التعسين الإذن ولو بشراء شيء منها .

* * *

ماذا عمل لمصر .. ؟

لقد قنع محمد على بأنه جعل الصحف الأوروبية تضج باسمه ، وأنه أخضع الشعوب المحيطة به وأرهب السلطان في اسطنبول . لقد وجد أنه هكذا أدى رسالة كبيرة فلم يشغل بسعادة مصر إلا ثانويا وفي الحدود التي تكفل لمطامعه وسائل تحقيقها .

وبعبارة أخرى إن محمد على - هذا الرجل الذي هيأته الأقدار لانتشال مصر ! - لم يع تمام الوعي مدى أعماله : لقد أقبل ليشيد ركنا تهدم في بناء الشرق ، فتناول بضعة الأحجار التي سقطت من هذا البناء ، وبني في عجلة مسكناً غير ذي أجل بدلا من إقامة صرح جديد كان ينبغي أن يشيده المعماري الحق .

وجميع تصرفاته تحمل هذا الطابع ، طابع العمل المؤقت الأناني ، الذي يبدو عليه حتما لون من الإلهام . إنه لم يحم الزراعة قط ، وكان تطلعه للكسب وحده هو الذي دفعه - فيما يظهر - إلى أن يعطي للشرق مثلا نفعيا من الطرق الأوروبية في الزراعة والصناعة . ومع ذلك فالمرء يتساءل كيف اتخذ الجندي المقدوني هذا السبيل ، وكيف أدرك الرجل الأمي ضرورة الخروج على المألوف التماسا للموارد والتماسا للعظمة .

* * *

إن الناظر إلى جميع الأعمال التي زخرت بها حياته ليرى واليا متلهفا إلى المجد لا مشرعا يضع أساس الرخاء الذي ينبغي أن يسود من بعده ، ولا مجددا يسعى إلى إقامة العدل وتشكيل مواطنين صالحين لأعمال السلم من ناحية ، مدربين على أساليب الدفاع من ناحية أخرى ، ولا وطنيا ييث حب الوطن في نفوس الشعب ويشعرهم بأن بلادهم عزيزة عليهم . هو يعمل دون أن يكون مستقبل الشعب هدفا له . وحكومته حكومة فردية لا تستمد قوتها وهيبتها إلا من شخصه .

(بریتیشہ ادریس افندی)

حکم عالم جاتیا



إبراهيم باشا

صورته

كل ما يبدو لك من خلقة إبراهيم باشا ينبىء عن رجل
فطسوقى . قامه قصيرة ، وبطنه ، وحركات مفاجئة ،
ووجه انتشرت فيه نقط حمراء ونقره الجدرى ،
وعينان رماديتان ترتفعان عند الزاوية الخارجية ،
وغير مبتسم دائما يضىء على وجهه الصغير مظهرا
مرحا - هذه هى الملامح الرئيسية فى خلقته .

وكانت طبيعة إبراهيم محتدمة فائرة ، ولكنك إذا أضحكته بشيء من
التهريج رجع بسهولة عن حدة غضبه . وكان نزقا عنيدا ، حذرا ، يتوجس
من كل شيء ، قاسيا ، مسرفا فى الانتقام . ولقد أبدى فى حرب البصرة
أشبع همجية ، متعقبا بوجه خاص النساء والأطفال ، زاعما أنه يريد
استئصال ذلك الجنس . ولن أتحدث عن جسارته ، فقد ضرب أمثلة عديدة
من الاستبسال .

وكان يحب الانتفاع فلا يدخر وسيلة لتكديس كل ما يطيع له . وبلغ من
تكالبه على الكسب أنه أثناء حياة والده كان يزاوّل التهريب ويسرب إلى
القاهرة « تمباك » مزارعه التى كانت فى القبة . وكان يعرف دائما أن يجد
التعلة لينكص عما وعد .

وكان يتكلم كثيرا كلاما ردىء العبارة خاليا من كل علم ، والويل لمن كان
يجرؤ على أن ينقض ما يقول أو أن يقدم بعض الاعتراض على مشروعاته .
ولا يكاد إبراهيم يعرف القراءة والكتابة إلا فى مشقة ، ويضيف إلى هذه
الذخيرة من الجهل غرورا وكبرياء لا تطلق . أنه لا يعرف فضل المحسن ،
وبالتالى لا يسعى إليه ، وهو أقل من ذلك سعيا إلى إثابته . وقد يصغى
أحيانا إلى رأى أولئك الذين يحيطون به ، ولكن إسرافه فى الاعتداد
بنفسه واملاقه من سداد الرأى الذى يتيح للمرء أن يقارن ، ومن المعارف
التي تتيح للمرء أن يناقش ، كل ذلك يدفعه إلى اتباع رأيه دائما لأنه يعتقد
أنه أفضل الآراء ، وهو يقول : « أنا إذ أفعل كل شيء بنفسى يغمرنى
المجد أو اللوم دون سواى »

مذبحة الممالك الثانية

التجأ الممالك الذين فروا من مذبحة القلعة - حيث قتل ١٢٠٠ منهم - إلى النوبة ودنقلة . واضطروا مكروبين من ناحية بعقبات الطبيعة ، ومن ناحية أخرى بتعقب « إبراهيم بك » إياهم - وقد انهكهم قتال اقدموا عليه هنا وهناك دون ظفر - إلى أن يلتمسوا المأوى في الجبال التي يقطنها العباددة والبشارية . واجبرتهم هذه القبائل الهمجية على أداء ثمن باهظ عن تلك الضيافة العقيمة . وقد انفق البكوات لإمداد جنودهم بالقوت اللازم في قلب تلك الصحراء جميع ما ملكت أيديهم . وعلى الرغم من التضحية بذخائهم فقد هلكت جميع جيادهم من قلة الغذاء ، وهلك كثير من رجالهم نتيجة لشدة الحرمان .

فلما أملق الممالك من راحة الحياة وأصبحوا يعانون مالا يطاق من الضيق ، قبلوا أن يستمعوا لعروض الصلح التي أرسل إبراهيم الماكرو مندوبيه يقترحونها عليهم وسط كربتهم . ولم يعدهم سلامة حياتهم فحسب بل وأن يعيدهم إلى مثل المناصب التي في مستوى رتبهم وأن يرد لهم ممتلكاتهم ، وهذا كله على شرط أن يعترفوا بحكومة محمد على . ولقد خلبت هذه الوعود نحو ٤٠٠ مملوك فأنستهم الدرس القاسي الذي تلقوه منذ عام خلا ، وكان على رأسهم بكوات مختلفون ، فقبلوا المقترحات . وفي نهاية مايو عام ١٨١٢ نزلوا من الجبال قوافل صغيرة واتجهوا نحو أسنا حيث كان مقر قيادة إبراهيم . فلما اجتمع الممالك ، وراى ابن محمد على أنه لا ينبغي انتظار قدوم آخرين تستدرجهم تلك الوعود المغرية ، أصدر أمره بالإجهاز على أشتات هؤلاء الجند الذين كانوا ذوى صولة فيما مضى . وفي ليلة واحدة ذبحوا جميعا بلا رحمة . ولقى مائتا عبد أسود مصير سادتهم .

وانقذت وساطة طبيب إبراهيم الفرنسى مملوكين فرنسيين من طائلة هذه المذبحة الرهيبة . وثمة مملوك آخر لقيته في أسنا يدين بنجاته إلى ما كان عليه من الصبا والجمال .

* * *

إبراهيم القائد

لم يكن لإبراهيم شيء من ملكات القائد الصالح ، بل لم تكن له الثقافة العلمية اللازمة لقائد الجيش ، فذلك كان ما كسبه من فوز راجعا إلى جبن أعدائه بصورة لا يمكن للمرء أن يتصورها أكثر منه إلى تدبيره ومهارته . وهو لا يصدر تعليمات واضحة محددة ، وإنما يتكلم كثيرا ، حتى يختلط الأمر على رجاله لكي يستطيع إذا فشلت المهمة أن يلقي وزر الخطأ على أولئك الذين - حسب ما يرى - لم ينفذوا أوامره .

ويقود إبراهيم قواته العسكرية بالتملق والخرافات وإغرائها بالسلب والذهب ، ولا يعاقب أبدا على ما ترتكبه من فضائع كما أنه لا يثيبها . ولا يشغله أبدا هم المحافظة على سلامة جنوده والعناية بصحتهم ، فإنه يهدمهم بالمشى المنهك ، وقلة الراحة التي يمنحها إياهم ، وقلة الغذاء والكساء .

هذا هو الرجل الذي اجتزا قلم مرتزق (مسيو سكاكيني) على أن يكتب عنه : « ان إبراهيم روح الجيش . نظرتة الواعية ورباطة جاشه من صفات قائد محتك . وولاؤه وتواضعه النبيل وانطلاقه وسط نار الوغى قد كسبت له قلوب رؤساء جنوده . لقد قدر لهذا الأمير ، الإدارى الصالح ومحِب أنوار الثقافة والمدنية ، المع مستقبل . » هكذا - على وجه التحديد - يكتبون التاريخ !

* * *

إبراهيم العظيم ؟ !

إنما يعرف الرجل بأعماله . ولرسم صورته وأخلاقه ينبغي ذكر الوقائع فى المكان الأول لا التفلسف ولا الإشادة بالمناقب ولو كان فى ابلغ الأساليب . وها هي ذى بعض الوقائع التى تتحدث من تلقاء نفسها ولا تحتاج إلى تعليق .

أثناء جولة بدمياط ، شرف إبراهيم باشا بحضوره حفلة إقامها لتكريمه « سرور » القائم بأعمال الانجليز . وبعد راحة القيلولة قدمت له صبية تتراوح سننها ما بين الثامنة والعاشرة سلة من الفواكه والأزهار . فأنشأ إبراهيم للتوصل على جمال ابنته مشيرا إلى أنها سرعان ما سوف تبلى نضجها ، وسأله هل أمها على قيد الحياة ، فلما أجيب بالإيجاب ، أضاف :

— ويحكم أيها النصرى لا تتزوجون إلا امرأة واحدة ! انى اتمنى لك موت الأم هذا الاسبوع لكى تحظى باخرى .

* * *

إبراهيم البطل ؟ !

أكتوبر ١٨٢٦ :

أثناء حملة شنّها إبراهيم باشا على ضواحي « تريبوليزا » أسر الرجال فتى يونانيا فى كمين ، فاحضروه إلى خيمة الباشا ، وسأله إبراهيم عن اسم قائد فرقته ، فأجاب الفتى انه جندى ولكنه لا يعرف شيئاً مما يسأله عنه . وألح الباشا فى سؤاله ، وإزاء رفض الفتى هدهد بالموت ، فرد عليه :

— لو كان لى بذلك علم فلن أخون مصلحة وطنى . فاعتاظ إبراهيم من هذا الجواب النيبيل ، وتناول بندقية واحد من حراسه ، وقتله .

ديسمبر ١٨٢٦ :

أقبل رجل يونانى إلى معسكر « مودون » للمفاوضة على تبادل بعض الأسرى . فرفض إبراهيم باشا عروضه ونهاه عن المجيء مرة أخرى . وبعد بضعة أيام ، حضر نفس المفاوض إلى المعسكر لنفس الغرض . فأمر الباشا - دون أن يحاول الإصغاء إليه - بالقبض عليه وإلقائه حياً فى تنور معمل للأجر .

* * *

إبراهيم التاجر

لقد بلغ من جشعه انه كان يعمل دائماً على تأخير دفع مرتبات جنوده واحتجاز شىء منها . وفى المورة لم يدخر وسيلة للاستيلاء على النقود . وهذه بعض الأمثلة التى تشهد بذلك :

كان « أنتوناكى ميتاكسا » تاجراً يونانيا يبيع ويشترى لحساب إبراهيم باشا فى مودون . كان يبيع لأفراد الجيش من اللوازم ما يحتاجون إليه ويقبض الثمن أوراقاً مالية تخضع من مرتباتهم . ولما ظل الضباط مدة طويلة دون قبض مرتباتهم ، عمدوا - لكى يحصلوا على شىء من النقود - إلى أن يشتروا ملابس واسلحة من « ميتاكسا » باثمان غالية ثم يبيعونها

فى السوق ليستمدوا بعض المال نقدا . فكان عملاء « ميتاكسا » يشترون نفس السلع بثمن بخس ويمالئون بها مخازنه من جديد .
 وكان إبراهيم باشا يبيع لجنوده أحذية وملابس باغلى من ضعف ما كلفته من ثمن . وفى شهر سبتمبر عام ١٨٢٥ أرسل إليه فى مودون مسيو « جيتانو مارى » على ظهر السفينة التوسكانية « فيسيوس » بقيادة القبطان « بوسنجوفيتش » شحنة من ٩ آلاف زوج من النعال المصنوعة على الطريقة المجرية . وكان الزوج منها يكلف نحو ١٠ قروش ، فجعل إبراهيم ثمنه للجند ريالين .

وكان يضارب فى أسعار العملة ، ويضطر فرق الجيش على أن تقبلها بالسعر الذى يقرضه . وبهذه المضاربة ، كسب يوما فى مودون نحو ٦٠٠,٠٠٠ قرش إذ استغل الأمر ورفع سعر الريال إلى ١٦ قرشا بينما لم يكن سعره يتجاوز ١٥ قرشا فى مصر .

وكان هذا الإتجار الدنىء وكانت تلك الصفقات الملفقة سببا فى أن ظلت فرق الجيش فى المورة ترتدى الأسمال وتعانى البؤس .

* * *

رحلته إلى فرنسا

عندما قام إبراهيم باشا برحلته إلى فرنسا ، رويت عنه عبارة لو كانت قد صدرت عنه حقا لدلت على ذكاء قريحة لم أكن لأتوقعه منه . فعلى أثر زيارته لقصر « فرساي » وحدايقه ، قال انه لا يدهشه بعد أن رأى ذلك ألا يكون الفرنسيون أهل دين وتقوى ، فانهم يملكون جميع ما وعد به المتقون فى الفردوس ، ديارا فخمة ، وجنات جميلة ، ونساء خالبات الحسن ، وانبذة لذيدة .

وقد تبدلت أفكار إبراهيم باشا بصورة غريبة أثناء زيارته لأوروبا . وحين عاد إلى مصر ، كان ينوى إدخال تحسينات عديدة حال موته دون تنفيذها .

كان يريد أن يجعل من ميدان الأزبكية حديقة عامة ، وأمر بشراء آلة بخارية لرى هذه الحديقة التى لم يمهله الزمن للشروع فى غرسها .

* * *

وفاته

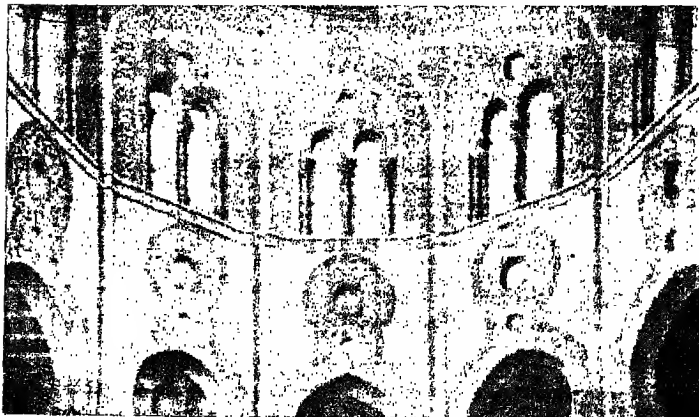
ينسب « بونفور بك » وفاة إبراهيم إلى إهمال عارض لا إلى انحراف فيه . فذات يوم زار حصون الاسكندرية بصحبة « جاليس بك » ، وعاد إلى القصر في قيظ الظهر ينضح عرقا ، وجلس أمام نافذة في مجرى الهواء يشرب الشامبانيا ، فنكأ ذلك ما كان قد أصابه من داء الرئة حين سافر إلى القسطنطينية ولم يكن قد برا منه تمام البرء . وتفاقم الداء ثم اضطرتة صدمة برد جديدة في القاهرة إلى لزوم الفراش ، فرقد الرقدة التي لم ينهض بعدها . وقد توفي في القاهرة في ١٠ نوفمبر عام ١٨٤٨ (١٤ من ذى الحجة عام ١٢٦٤) وهو يتمتع بثناء أقاربه ، بين يدى وكيله مسيو « بونفور » ، دون أن يفكر في الموت ، بل قائلا انه لابد أن يبيع قطنه بثمان مرتفع ! .

* * *

رثاء محمد على لإبراهيم

حين أنبىء محمد على بوفاة إبراهيم قال انه كان يعتقد دائما ان ابنه سوف يسبقه إلى القبر وان حفيده عباس سوف يخلفه على عرش مصر .

■ ■ ■



عباس باشا

نشأته :

ولد عباس باشا فى القاهرة عام ١٨١٣ . وكان الولد الوحيد لطوسون باشا الذى اختطفه موت مبكر من حنان أبيه محمد على . وكان الوالى الشيخ يؤثر عباس فى صباه بمحبة خاصة . فنشأ مدبلاً وأهملت ثقافته بين يدى مربيه التركى وما أحاطه من عبید حريصين على إرضائه . وهكذا شب دون أن يلتفت إلى التجديدات التى أدخلها جده والتى كان يجد نحوها فى نفسه شعوراً من الازدراء لازمه طيلة حياته .

ذات يوم بمناسبة عيد الأضحى . ذهب يقدم فروض التهئة لجده ، فجلس على الديوان واضعاً ساقاً على ساق ، وهو وضع لم يكن أحد يجزؤ على اتخاذه فى حضرة الباشا الشيخ . واستاء محمد على ألا يراه يسعى إليه ليقبل يده فى احترام ثم ينتظر حتى يأذن له بالجلوس . فسأله بأى حق أباح لنفسه تلك الحرية فى الجلوس . فأجابته :

— بحق الرجل الذى يعرف شرف أجداده . ألسن باشا ابن باشا وحفيد باشا ، بينما أنت لا أجداد لك من الأشراف ؟

فأمره محمد على - وقد استاء لإجابته - أن يعود إلى جناحه ويلزمه إلى حين صدور أوامر أخرى . وفى اليوم التالى أرسله إلى معسكر « جهاد أباد » قرب الخانكة ليتلقى تربية وتعلماً يناسبان آراء الوالى المجدد . وألحق بمدرسى اللغة التركية والفارسية والرياضة كولونيل فرنسى لتدريس العلوم العسكرية ومدرس للطبوغرافية الحربية ومدرس للتاريخ .

ولقطع الصلة بحياته الماضيه ، أبعدت عنه حاشيته ، وعين مماليكه بالمدرسة الحربية ، وألغى فريق الصيد الذى كان يخرج فيه . وترك له حصانان ، ولكن بدل أن يسرجا على الطريقة الشرقيه كالكرسى الوثير ، أجبر على أن يمتطيهما فوق سرج الخيالة . وذات يوم ، امتطى حصانه

الذى لم يكن قد اعتاد ذلك السرج ، قُتِجِح الحصان والقاء أرضا ، أمام كتيبة كانت تدق طبولها إيذانا بأن تؤدي له التحية العسكرية . فأمّر - وقد أثارت غضبه تلك الحادثة - أن يوثق الحصان وأن يضرب بالعصا وبعد عشرة أشهر من الجهود غير المجدية ، إذ رأى الباشا الشيخ نفور حفيده من الفن العسكرى ، أعاده إلى القاهرة لكي يدرس الإدارة . وظهر نفوره من نظم الفرنجة ومن زيههم فى كل مناسبة . وعندما أمر السلطان أن يرتدى جميع كبار موظفى الدولة الطربوش بلا عمامة « والفراك » « والبنطلون » والأحذية ، لم يرد قط أن يلبسها . وإزاء هذا الأورار داعبه الدكتور كلوت بك قائلا له انه لابد أن يتخذ ذلك الزي ، فشكاه إلى جده الذى أمر فى الحال بأن يقف الطبيب أياما ثمانية . وهو لم يلبس ذلك الزي إلا بعد ذلك بسنوات ، ولمجرد الرحلة إلى القسطنطينية لتسلم مقاليد الولاية .

وسرعان ما عين محمد على عباس على رأس الإدارة الداخلية ، حيث يصعب تصريف الأمور ، وحيث أبدى فهما نادرا لحاجات البلاد ومصالحها الحقيقية .

كان يضيف إلى شدة عزمه قسطا كبيرا من التلطف والولاء وكرم السليقة ، وجودا أصيلا ورثه عن أبيه . وكان بسيط العوائد حفيا يعرف كيف يؤلف بين أهل البلاد على اختلافهم . لقد عمدت بعض الصحف ، وقد ضللها أشخاص سيئو النية من الأوروبيين الذين خابت آمالهم الطامعة ، إلى إذاعة أن حكمه كان يعوزه الذكاء والنظام . ولكن هذه الوقائع تكذب ما رموه به :

فمُنذ شبابه تدرب على الشؤون الإدارية والحربية وحكم مصر بوصفه وكيلا لمحمد على . وفى عامى ١٨٣٨ و ١٨٣٩ ، حين أوشك وقوع الحرب بين الباب العالى ومصر ، وكان إذ ذاك محمد على فى « فايزوغلو » قرب خط الاستواء وإبراهيم باشا فى تخوم الممتلكات السورية ، عين محمد على ، لإعداد معدات الحرب حفيده حاكما عاما على مصر وحاكما لشؤون سوريا المدنية .

وفى تلك الفترة التاريخية العصبية أبدى فى الحكم من النضج وفهم الأمور ما يستحق به إمارات الثناء من جده . ولكن طاب لأعدائه - لينثروا ضد الرأى العام - أن ينشروا عن كرهه للنظم الأوربية أقاصيص كاذبة .

سياسته

عندما تولى عمه إبراهيم باشا الحكم ، اعتزل عباس الحياة العامة وانتهن الفرصة لأداء فريضة الحج . وحين توفي إبراهيم ، كان عباس الذى الت إليه الولاية - حسب رسم الوراثة العثمانى - ما يزال فى الحجاز . فتألف فى اليوم نفسه مجلس من اصحاب المناصب الكبرى فى الدولة لتصرف الامور إلى أن يصل عباس . ولقد ابلغوه نبا توليته عن طريق القنصل الانجليزى الذى ارسل سفينة تجارية من السويس عاد على ظهرها والى الجديد إلى مصر بعد انقضاء بضعة ايام على وفاة إبراهيم . وكان فى استقباله عمه سعيد باشا الذى كان إذ ذاك فى القاهرة ، يصحبه جميع اصحاب المناصب الكبرى . وتمت مراسم المناداة بعباس باشا واليا على مصر فى قلعة صلاح الدين بحضور أهم أعضاء الأسرة وكبار الموظفين العسكريين وقناصل الدول .

وقوبلت توليته بابتهاج من جميع الشعب . ولقد باشر فبدا حكمه باتخاذ بعض الإجراءات التى حققت جزئيا بعض ما كان الشعب قد رجا من أمل . رفع بعض المظالم الصارخة ، وكافا عن بعض الخدمات ، واحكم بعض ما كان قد اخلت من النظام . وفى ذلك ما يبرر الثقة العامة التى حازها فى أول ايامه . ومن بين تلك الأعمال يذكرون انه أعاد جماعة من الموظفين المفصولين من إدارات مختلفة دون معاش إلى وظائفهم .

بلغ عباس باشا السلطة فى أوائل عام ١٨٤٩ ، حين لم تكن لفرنسا أى سيادة فى الشرق ، وكانت قد سقطت مكانتها فى مصر . وكان يدبر فى نفسه افكار جده فى الاستقلال ، ولكن من ناحية إنشاء امبراطورية عربية وقد فاتح فى ذلك قنصل فرنسا العام مسيو « لموان » ، وسأله ما إذا كانت الحكومة الفرنسية تؤيده ان هو حاول التخلص من التبعية للسلطان وأراد مسيو « لموان » ، قبل أن يرتبط بجواب ، أن يستطلع رأى الوزير الذى أجب بالإيجاب . ولكن بعد فوات الأوان . فقد ضاق عباس بذلك الثانى ، فافضى بنفس المشروع إلى قنصل انجلترا العام مستر « موراي » الذى وعده فى الحال بالمعونة والحماية ، وأصبح عباس صديقا للانجليز . راجيا أن يتخلص فيما بعد من نفوذهم وذلك بإثارة العصبية العربية . وريثما يرد على سعى انجلترا ووعودها ، وجه نشاطا كبيرا واهتماما خاصا إلى إدخال جميع التحسينات الممكنة على

المواصلات والنقل بين القاهرة والسويس . وفي الوقت نفسه التمس
التيقن من تأييد النمسا بأن أرسل إلى فينا طبيبة الدكتور « برونريك »
الذى كان خليقا بأن يعقد له اواصر علاقة متينة .

لم يكن مطعمه الاوحد هو ضمن استقلاله وضمن عرش مصر لأولاده
من دون أمراء أسرته الآخرين ، وإنما كان يداعب في الخفاء آمالا اعرض
ويحلم بتكوين امبراطورية عربية .

وقد تحدثوا عن غرامه بإحدى البدويات دون أن يقدروا سبب هذا
الزواج الغريب . وفي الواقع انه اقترن بأبنة واحد من أقوى رؤساء قبائل
بلاد العرب فربط بقضيته جميع عرب الحجاز الفخوريين بهذه المصاهرة .
ولكى يحسن إخفاء علاقته ، أمر ببناء قصر له فى صحراء السويس وآخر
فى العقبة حيث كان يستطيع استقبال الرؤساء العرب بعيدا عن عين
الرقباء ، وإن ينضج مشروعاته ويعد العدة لتنفيذها . وبعون قبائل شبه
الجزيرة ، كان يمكنه أن يملأ أحكامه لا على مصر فحسب بل على بلاد
العرب ، وإن يقطع فوق ذلك على جيوش السلطان البرية طريق سوريا ،
بينما كانت تحصينات الاسكندرية تحميه من أى محاولة لهجوم بحرى
يشنه عليها الباب العالي . وبعد هذا كله ، كان يقدر انه فى حالة إخفاق
مشروعه واجد ملجا امينا فى قبيلة زوجته الجديدة .

ولم يعرف الناس فى أوروبا شيئا عن هذا المشروع العريض ،
ولم يعرفوا قط أمر علاقات الباشا بمسلمى الهند الذين كان فى استطاعتهم
إثارتهم ضد الانجليز كما حدث ذلك فيما بعد بوقت قصير ، ولم يروا فى
هذا الاعتزال بالصحراء إلا بعض أهواء الوالى . ولما كان قد اغضب
كثيرين من الاوربيين بإصلاحاته ، لم يفتهم أن يتألوا منه فى الصحف .
ومن الحق أن اخلافه - كاخلاق جميع الباشوات - مادة طيبة لتقد
الناقدين . ولكن مهما يكن من أمر ما يقال فيه ، فلقد كانت إدارته من
أخصب الإدارات .

* * *

بغضه للأوروبيين

تشهد إصلاحات عباس باشا وأقواله شهادة علنية باحتقاره للفرنجة .
وان جميع ما رام منذ طفولته ليبرر مسلكه . لقد كان يريد أن يعود إلى
التقاليد والأخلاق القديمة دون أن يهمل شيئاً في سبيل ذلك . ولما أثار
غضبه ما كان يرى كل يوم من تغلغل العوائد الأوروبية ، نهى مماليكه
وجنوده عن تدخين السيجار والسجائر ، وإذ ضبط بعضهم متلبسين
بما نهى عنه أمر بأن تخاط أقواهم ، ثم أمر بعد أربع وعشرين ساعة
- حين رأى ان في ذلك عقاباً كافياً - أن تقطع الخيوط التي حككت بها
شفاههم . وقد روى لى هذه الواقعة الفظة طبيبه مسيو « ليو » ، ونشر
النبا على ما أظن ، في جريدة « التمس » .

ولقد دفعته روح الاستقلال عن الباب العالي بقدر ما دفعه كرهه لزي
الفرنجة إلى استعادة الزي العربي ولكن في جميع بهائه وبساطته
الطريقة . واقتدى به الممالك فارتدوا جلابيب حريرية مطرزة
و « كوفيات » موشاة بالذهب كان يرتفع ثمن عقالها إلى ٦٠٠ قرش . وعاد
القرف الشرقي إلى الظهور ، إذا لم يكن في روعة أبهته ففي أناقته النبيلة
الجميلة .

ولم يكن يحب استقبال القناصل ، فإذا اضطرت المناسبات الكبرى إلى
أن يتجشم عناء زيارتهم ، دعاهم إلى مآدب عشاء طيبة على الطريقة
الأوروبية لم يكن يظهر فيها . فقد كان يتعشى بمفرده دائماً . كان يتوارى
ليتناول وجباته ويأكل على هواه ، أى كما يأكل الشره إلى حد ما .

* * *

عباس باشا والحيوانات

وتحدثوا كثيراً عن حبه للحيوانات . ولقد كان يقتنى بالفعل أحسن
الحياد وأحسن الجمال في مصر والحجاز . وبلغ من حرصه عليها أنه
لم يكن يأذن لأحد بزيارة حظائره . لم يكن عباس يمنع دخول داره
بالعباسية ، كما يزعم « شارل ديدييه » ، ولكنه كان من هواة الجياد فكان
يخشى عليها شر العين الحسود ، شأنه في ذلك شأن جميع الاتراك ،
ولذا أصدر أوامره لحرسه بالقبض على كل من يقترب من الحظائر .
وكان لعباس برج حمام تعمره أجمل واندس الحمام التي كان يستجلبها

من جميع البلاد . وكانت لديه أيضا عدة أجناس من الكلاب ، وعدة أنواع من الخراف والكلاب ، وكان يحيط تلك الحظائر التي يعيش في وسطها بعناية مترفة نزقة هي بعض صفات الأمراء الشرقيين ، فكانت حمائمه تحمل جلاجل من فضة ، وكانت كلابه تحمل أطواقا باذخة ، وكانت كباشه مصبوغة بالحناء مذهبة القرون . بيد أنه لا ينبغي أن تصدق ما يزعمه بهذا الصدد « ماكسيم دوكان » الذي يسيطر عليه تخياله الخصب . ولا يعرف من مصر إلا مظهر الأحجار التي صورها بالتة :

* * *

أخلاقه

أما أخلاق عباس ، فكانت كالأخلاق جميع سلاطين الشرق ، حيث يدلل الغلمان أكثر مما تدلل الجوارى . لقد كان عباس يستسلم لمجنونه في الخفاء ، مع مماليكه الذين كان يجعلهم يؤلفون حلقة لإمتاعه ، ولكن كرامته كانت تآبى عليه أن يكون الأداة السلبية للذة عبد أو فلاح . وكان قاسيا محبا للانتقام . رفض يوما طبيبه الدكتور « جاندی » أن يعطيه كمية من السم فكسر الخزانة واستولى على القارورة ، وسمم بها أحد مماليكه . ورفع الطبيب استقالته إلى الباشا الكبير ، وقبض مؤخر مرتبه . ولكي ينمى المبلغ الصغير الذي ادخره قام برحلة إلى سنار . وعندما علم عباس بسفره دبر اغتياله عند أول بئر في صحراء البايوضة . وكتب بعضهم أن عباس باشا قد تزوج راقصة شهيرة من راقصات القاهرة تدعى « صفية » وهذا خطأ في ذكر الواقعة . لم يفعل عباس ، وقد خلبه جمالها ، إلا أن اتخذها خلية له بعض الوقت ، ثم سرعان ما نسيها .. إلى أن عاد فتذكرها حين علم من قبيل المصادفة أن أحد الضباط في حيازته « نرجيلة » فاخرة كان الوالى قد أهداها إلى عشيقته إذ ذاك ، فإذا به دون أن يتحرى كيف انتقل هذا الغليون إلى أيدي أخرى ، يامر بالقبض على المرأة التعسة وإلقائها في النيل . ولم تنج « صفية » من الموت إلا حين باحت بفقرها الذي اضطرها إلى بيع جزء من متاعها . على أن ذلك لم يمنع من ضربها بالعصا وإعادتها إلى اسنا بين البغايا اللواتي عرفهم كثير من الأوربيين .

ولم يكن عباس باشا يجد راحته في جو المدن . كان يتطلب هواء

الصحراء الطلق النقى ، وتشهد بذلك قصوره فى بنها والعباسية والدار البيضاء .

وكان القصر الذى ابتناه فى وسط السهل المجذب ، الذى يبدأ عند آخر مقابر السلاطين المماليك ويمتد بين الاراضى المزروعة وسلسلة المقطم قصرا اشد عزلة وكابة من مخيم للبدو . فهكذا كان يعسكر مع موظفيه فى قصر بائس ، تحميه بعض قطع المدافع وفرق الجيش المرابطة بجواره ، بعيدا عن مطالب القناصل ، بعيدا عن توسلات الاوربيين ودسائسهم ، وعلى استعداد للنزوح فى احدى لحظات السامة .

وكان عباس منخفض الجبهة ، عريض الفكين ، له ذوق الاطفال وذك المجنون ، وكان ورعا ، متطيرا ، تكسوه التمائم والتعاويز من كل نوع .. ولكنها لم تستطع ان تحميه من ميتة فاجعة .

* * *

نهاية عباس

وحانت نهاية عباس عندما اكتشفت الخطة التى كان يبيتها للتخلص من سلالة محمد على لكى يضمّن وراثة عرش مصر لابنه من بعده . كان الامر امر انقلاب يودى بحياة خمسين من كبار ذوى النفوذ يوم سفر المحمل ، وهو احتفال عظيم يجتذب جمهورا غفيرا . واعطيت قائمة بأسماء الضحايا لخورشيد باشا . وفى ذلك اليوم ، على اثر تسليم مقود المحمل لأمير الحج ، كان مقدرا ان يتشاجر اثنان من رؤساء « الباشيبوزوك » وان ينتصيا سيفيهما ، وان يشترك فى الشجار رجالهما الموزعون بمهارة . وفى هذه الملحمة كان مقدرا ان يقتل عدة باشوات وبكوات وحاشياتهم . وكان مقدرا فى الوقت نفسه ان يتصنع عدد من الفرسان تعقب القتلة فيدخلوا فى وقت واحد دار حليم باشا ، عم الوالى ، وقصر مصطفى احمد باشا وإسماعيل باشا ، ابني عمومته ، كانهم لاجئون يلتمسون الماوى ويقتلون جميع من هناك . هكذا فيما يقال ، كان عباس يريد ان يتخلص من مزاحميه ويمهد طريق العرش لابنه « الهامى » .

على ان القول بذلك يتبغى ان يؤيده الزمن اولا وان يؤمن عليه قوم نزيهون قبل ان يسجل فى التاريخ . لاننا اذا صدقنا كل ما اشيع فى القاهرة ، رايانا ان الجميع كانوا يحيكون الدسائس إذ ذاك . فقد كان سعيد

باشا على الرغم من همود عزيمة يدرب على حمل السلاح بعض الجنود والبحارة . ولم تثر هذه الاستعدادات الحربية قلق عباس ولكنها أثارت حفيظته . ولم يكن بد لسعيد من الالتجاء إلى السم وقاية لحياته وضمانا للعرش . وهذه الرواية أشد شبها بالحقيقة .

وكان عباس ذا بنية ضعيفة القلب ، ولكن وفاته لم تكن نتيجة سكتة قلبية كما قيل . فقد وجدت علامات سوداء حول عنقه ، على حد قول الرجل الذى كلف بغسل جثته قبيل دفنه . وكان قد دخن فى الليلة البارحة « جوزة » محشوة بالشيرا (وهى مستحضر من الحشيش) ثم نام نوما عميقا . فانتهاز القتلة تلك الفرصة . وعلى الرغم من ارتكاب القتل فى قصر بناها الذى كانت تحرسه قوة كبيرة من الحرس ، لم يعترض احد سبيل القتلة فى فرارهم .

لقد اسرجوا جيادا وهربوا عابرين ثلاثة مراكز من الحرس يلتمسون مأوى لهم ، من حيث انطلقوا بعد ذلك دون ان يفكر احد فى اعتقالهم . ويقول أكثر الآراء انتشارا ان ميتة عباس كانت بايدى مملوكين اكترهما سعيد باشا ، على حين يزعم آخرون ان مصرعه كان بايدى اخوين اراد هذا المستبد الفاجر ان يجبرهما على ارتكاب الفعل الداعر الذى تروى الاساطير ان « المشتري » صنعه « بجانوميد » ، فرفض ، فهددهما بشر العقاب لما يبديان من عصيان ، فخشيا ان يحقق بهما مصير عبد كان قد خصى فى الليلة السابقة ، وانتهزا فى نفس الليلة فرصة سكر الباشا وخنقاه .

ولكن وقائع كثيرة تشهد ضد خليفته . فقد منع سعيد باشا القيام بتشريح الجثة ، ودفع الطبيب « ديامنتى » و « مارتينى » إلى توقيع شهادة بان عباس قد مات بالسكتة القلبية . ولم يسع إلى تعقب القتلة . واقبلت ام عباس باشا على سعيد باشا باكية تساله ان يثار لولدها ولكنها لم تستطع ان تنال شيئا . والقى القبض على رجل برىء لمجرد الشكليات .

وقد اراد إلهامى باشا ، ابن عباس ، ان يستجوب المماليك ، فلم يؤذن له . وبعد ذلك لم يتحدث احد عن القتلة الذين لجأوا - فيما يقال - إلى القسطنطينية ، حيث دبر ابن عباس ، الذى يقيم اليوم هناك وقد تزوج إحدى بنات السلطان - امر بقتلهم فى احد المواخير

ان كل ما اشيع عن موت عباس غير صحيح - قال لى ذلك طبيبه الدكتور « ديامنتى » - فقد كان ذا بنية ضعيفة القلب ومات فجأة نتيجة لازمة دموية . وقد سمع مملوكاه النائمان كالعادة بجوار بابيه بعض اقوال مختلطة لم يفهماها قط ، وعندما رايا سيدهما قد فارق الحياة هربا فى الحال إلى القاهرة خشية أن يتهما بقتله . وفى الصباح ، إذ لم يخرج أحد من تلك الغرفة ، تقدم بعض رجال القصر فوجدوا عباس متصلب الجسد مثلوجا . فاستدعوا طبيبه الذى أكد انه مات بالسكتة القلبية منذ ست أو سبع ساعات . ولما كانوا يظنون انه مات مسموما ، ولم يستطع الطبيب ارتجالا أن يجيب بالنفى فقد اذنوا له بفحص الجثة ، ولم يكن عليها أى أثر للعنف كما لم يكن على الفراش أو فى المكان المحيط به ما يدل على ذلك .

وكان هذا الموت فى بنها يوم ١٤ يولية عام ١٨٥٤ (٩ من شوال عام ١٢٧٠) وأراد أحظياء الباشا - وعلى رأسهم سكرتيره وخازن داره - أن يكتموا أمر موته ، فوضعوا الجثة فى عربة لنقلها إلى العباسية ، واتخذوا جميع الإجراءات اللازمة لحفظ النظام باسمه ، ثم احتبسوا أنفسهم فى القلعة أياما ثلاثة قبل أن يصرحوا بفتح الأبواب .

* * *

عهد عباس

ودخل سعيد باشا القاهرة فى ١٧ يولية . وكانت قد أضيئت الأنوار فى قصر شبرا حيث اجتمع الكبراء لاستقبال سموه . وكانت البهجة عامة : فالعبيد ياملون دائما آمالا كبيرا من تغير السادة . وكان الشبيء الوحيد الذى يشفع لسعيد باشا هو حبه رفقة الأوربيين وانه تربى تربيتهم . وبعد أن انقضى شهران على تولى سعيد ، أسف الكبار والصغار على موت سلفه . ذلك ان عباس كان إداريا صالحا ، جرى على يديه المال وجرت الحياة فى مصر من أقصاها إلى أقصاها . ولم يمدحه الأوربيون لانه لم يغدق عليهم أسباب الغنى ، ولكنه بوجه عام دفع أجر من أدى له بعض الخدمات .

فلقد وجد - وكان فى ذلك على حق - ان الفرنجة قد خدعوا جده فى أكثر الأحيان فكان عليه أن يحذرهم . ولم يكن يمنح ثقته باستخفاف ، بل طرد

من الخدمة عدة أوربيين أرادوا - وقد ازدهت معارفهم - التدخل في شئون الحكومة أو ازجاء النصح له دون أن يسألهم نصحا .
وقد فاجاه الموت وهو يفكر في مشروعات كبيرة : هب انه لم يكن يتأمر للقضاء على جميع أعضاء أسرته الخلقين بأن يطالبوا بالولاية على مصر ، فقد كان يفكر في أن يضمن العرش لولده ، الذي كان قد أرسله منذ وقت قصير إلى أوربا لكي يعقد فيها أوامر علاقات دولية بقدر ما يتوقف في شئون الحكم .



لقد تعمق إدريس في الحياة المصرية
حتى الحياة في الحدم وصفها واقعيًا

سعيد باشا الابتهاج بتوليته

قال احد المصريين سنة ١٨٥٨ عن الأنوار التي
اوقدت بمناسبة توليته : « ان الزيت الذى اوقدناه
احتقالا بجلوسه ندفع ثمنه دموعا منذ اربع
سنوات » .

وفى الواقع ما خيب عهد آمالا انعقدت عليه خيبة
أمر من مُلك سعيد ، وما كانت مصر اسوا حكما
ولا اباس حالا منها فى أيام هذا الأمير الذى رياه اوروبيون لم يحسنوا
إلا تملق نزواته ، والاغضاء عن رذائله بل تشجيعها .

* * *

تربيته وصفاته

فيما عدا اللغة الفرنسية التى يتكلمها بطلاقة ، لم ياخذ سعيد شيئا عن
الأستاذين « كونيخ » و « هوزار » . ولكن الأستاذ « كونيخ » عرف كيف
يغتنى ، اما الأستاذ « هوزار » فقد مات قبل تولى سعيد ، و وعد سعيد
أزملة بمعاش تتقاضاه مدى حياتها غير انه لم يصرف لها ابدا .
ولما حضر ابن الأستاذ « هوزار » إلى مصر عام ١٨٥٨ ، اكتفى صاحب
السمو بإهدائه سيفا بوساطة مسيو « ساباتييه » .

ولم ياخذ سعيد أيضا من عشرته للأوروبيين دروسا فى سلامة الذوق .
فان القصر الذى ابتناه فى « المكس » وكلف بتشييده مهندس مسيو
« مونتو » قصر من طراز « الروكوكو » قد انتشرت فى عمارته كالشوك
نحوت منقولة طبق الأصل عن « الانفاليد » مذهبة شديدة السرف فى
الطلاء بالذهب .

ولم يتعلم منهم سعيد باشا اللباقة والادب . فانه غليظ اللغة والعادات
لا يرمى حدا ولا اعتبارا . وكثيرا ما يلقى عبارات قذرة فى حديثه . ذات
يوم كان جوابه لكلوت بك الذى أقبل يحمل إليه تحيات من طرف الأميرة
ماتيلد :

— وماذا تعمل هذه البغي ؟ (باللغة الفرنسية) .

ورغم انه وقع مع الجميع ، فإنه لا يبيع لاحد ان يخاطبه بنفس
اللهجة .

وانك لتتقدم حين تحصل على الإذن بالدخول إلى سموه ، وتنتظر ان
يتفضل السيد بالالتفات إليك او أن يومئ لك بالتحية ، ولكنه إذا كان
لا يريد أن يقطن إلى وجودك ، ادار لك الجميع ظهورهم وانصرفوا عنك :
فأنت إذن من المغضوب عليهم .

وليس لسعيد باشا من اللباقة وحسن التصرف ما يلزم لمن يكون في
مركزه ، فكثيرا ما يسئ استقبال شخصيات كان ينبغي ان يظهر نحوها
قدرا من الاعتبار او ان يتكلم عنها في تحفظ .

وسعيد خفيف العقل قليل التبصر ، يتحدث عن شؤنه امام الأجنبي
كأنه يتحدث إلى أمين سره . وهو فوق ذلك شديد النزق ، ومن كان حظيا
لديه يوما لا يظل في حظوته تلك أمدا طويلا .

وعلى الرغم من ثقفه بالعلوم والفنون الأوربية ، وهو امتياز لم يتيسر
لأحد من اسلافه ، فقد أهمل جميع المؤسسات التي انشاها محمد علي
وإبراهيم باشا ، وتركها تخرنق . لقد نقلت أخيرا جميع ادوات المرصد إلى
أحد مخازن الذخيرة ببولاق ، واحيل الفلكي العربي إلى هيئة المهندسين .
وأصبحت ورشة تصليح ادوات علوم الرياضة ورشة لصنع القذائف
الفارغة . وكل شيء في سبيله إلى التلاشي جزءا بعد جزء .

* * *

وظيفة جديدة للجيش ؟

وحل محل الجيش الباسل الذي أرغم السلطان على التسليم جيش من
الماجنين يتعذر أن يسود فيه النظام إذ تسود فيه الحظوة أولا . وإلى
جانب جنود يلبسون الاسمال ، يرى المرء كتيبة فاخرة من الغلمان تمثل
دور الجندي أثناء النهار ، وتؤدي ادنى ادوار الفجور أثناء الليل .
ويزعم متملقون أنه احل التجنيد النظامي محل الضغط ، غير أن جيشه
منتخب قبل كل شيء لغرض إرضاء شهواته الدنيئة . ولم يشق من شق
من شيوخ القرى نتيجة لرفضهم تسليم ابنائهم للجندية ، بل لانهم ارادوا
إنقاذ ابنائهم من مجون الوالى الذى يجند الجنود ليملا بالغلمان
حرما له .

الضبط والربط

وفى الأيام الأولى من شهر ديسمبر عام ١٨٥٨ عندما كان سعيد باشا فى منقلوط ، وجد اثنان من الجنود انهما بجوار قريتهما فذهبا إليها لرؤية اهلها وأنفقا الليلة معهم . فلما عادا فى الصباح القى القبض عليهما . وامر سعيد باشا ، دون ان يحيلهما إلى مجلس عسكرى ، بأن يرميا بالرصاص . فصوب الجنود الذين كلفوا بتنفيذ هذا الحكم المستهتر بندقياتهم بحيث يتفادون قتل زميلهم . واحتد غضب الباشا فامر بربط كل منهما إلى فوهة مدفع وإطلاقه ، وحكم على الجنود المتسامحين بالأشغال الشاقة

* * *

الشعر

وسعيد باشا يحب الفواكه ويكلف بها ، ويرد إليه الكثير منها على كل باخرة قادمة من أوروبا . ويقولون انه ينفق ما ينيف على ١٢ ألف فرنك لإرضاء نهمه . وعند فتح صندوق من صناديق الفاكهة ، تراه أحيانا ينقض على الثمار فى شره المذهوم يلتهم واحدة بيمينه ويمسك أخرى قد انتقاها بيساره ويشتهى الباقي بعينه .

وهناك واقعة تشهد أكثر من سواها بسفاهة الباشا ، وهى الأمر الذى أصدره إلى مدير مستشفى قصر العيني بعدم فرض طعام المرضى القليل على أى جندى . فالجنود احرار فى تناول جميع ما يريدون وبالقدر الذى يريدون . وممنوع على الأطباء أن يصفوا لهم ضمن علاجهم الحمية من الطعام وتناول نصف وجبة أو ثلاثة أرباع وجبة . وبلغ من شدة عطف سموه على جنوده الذين يشاطرونه لذاته وأعماله ويدفعون عنه ما يحرق به من خطر ان عين لهم طاهيا خاصا ومائدة خاصة فى المستشفى .

اهتمامه بمصالح مصر !

واهتمامه بمصالح التجارة اكذوبة من اكاذيب « دى ليسبس » وشركاه . ذات يوم شكوا بعضهم إلى سعيد باشا من قلة انتظام السكة الحديدية التى لم تعد تسير قطرها إلا لحاجات سموه الخاصة ، فاجابهم : — اننى شديد الاهتمام بمواصلاتكم التجارية . ولكن هذه السكة الحديدية ملكى ، ولى أن أفعل بها ما اشاء .

ولا يشغل بال سعيد أن يخلف وراءه اسماً شريفاً وسعادة للشعب الذى عهدت به الأيام إليه ، وإنما التكديس والاستمتاع مما شغله الشاغل .
قال لسليمان باشا :

إن نصائحك طيبة جداً ، ولكنى قبل كل شيء أريد أن الهو ولا يعنينى مابقى بعد ذلك ، وليكن من بعدى الطوفان .
وقد حرم جمهوراً من المستخدمين الشيوخ معاشهم ، منكر ما أدوا من خدمات .

مصرع أحمد باشا :

حادثة كوبرى كفر الزيات

ان موت أحمد باشا ابن إبراهيم - ولى العهد - يثير شبهات كثيرة حول سعيد . كان أحمد يفعل خيراً جما . كان جواداً يهب هبات عريضة وهو يدير أملاكه فى اقتصاد . ومات مأسوفاً عليه لأن ملكه كان يعد مصر بمصير أسعد مما استطاع أسلافه أن يؤدوا لها . فليس من بين سلالة محمد على أو إبراهيم من يعد مصر بحكومة أبوية صادقة الحذب .
ولم يبد سعيد باشا أسفاً على موت أحمد باشا ، بل كان مما قال : « ان اليتامى الذين كان يعولهم سوف يبيكونه » . وغضب على أدهم باشا الذى تحسر لفقد أحمد .

وتحوى إحدى الصحف الصادرة فى مالطة فى ١٨ يونية - على ما أذكر - مقالا أثبتت فيه ان موت أحمد باشا كان قد أمر به سعيد .
واقر لى مهندس انجليزى انه قبل وقوع الحادثة ببضعة أيام ، صدر الأمر بالحفر حفراً عميقاً عند أسفل أعمدة القنطرة دون أن تستدعى ذلك حاجة ظاهرة ، فقد كان هناك من الماء ما يحمل أشد السفن . ولولا العمل الذى حفره ابتلعت عربات القطار ، لجاوزت العربى الثالثة - التى كانت تقل أحمد باشا - مستوى الماء ولنجا وارث العرش .

وقبل وقوع الحادث ببضعة أشهر - ومن المحتمل أن يكون ذلك فى الوقت الذى اخترمت فيه فكرة هذه المؤامرة الرائعة - سرح سعيد باشا « جريم بك » مدير السكة الحديدية الانجليزى ، وأحل محله « نوبار بك » وهو فتى أرمنى ، وقدم له الهدايا قبل وقوع الحادث وبعده .

شقاء مصر

ان شقاء مصر الأكبر مصدره نظام وراثه عرشها الذى وضعه السلطان .
 بان ولاية مصر الذين خلفوا محمد على كانوا يعلمون ان ابناءهم لن يرثوا
 الحكم ، فاهتموا بترائهم اكثر مما اهتموا برفاهية مصر . انهم يفكرون فى
 ملء خزائن اولادهم ، او فى ان يضمثوا لهم العرش ، ولا يفكرون قط فى
 إسعاد المصريين .

وإدارة سعيد باشا اسوا من إدارة عباس . تبلغ ديون الوالى الحالى
 اكثر من ٦٠ مليون ريال (٣٠ مليوناً من الفرنكات) . وهو مدين بمثل هذا
 المبلغ للجيش الذى لم تدفع له مرتبات منذ وقت طويل ، وبمثله ايضا
 لتجار مختلفين . وباتت شركة الملاحة للبحر الأحمر عاجزة عن القيام
 بعمل أى شىء لان الوالى لا يمدها بالمال اللازم . لقد انفق اثناء السنوات
 الاربع التى قضاها على العرش اكثر من ٤٠٠ مليون ، ويدين بحوالى
 ٨٠ مليوناً . ولم تدفع للموظفين مرتباتهم منذ عشرة اشهر . وهناك تفكير
 فى ان يخصم منهم مرتب ثلاثة اشهر كما حاق بهم من قبل .

* * *

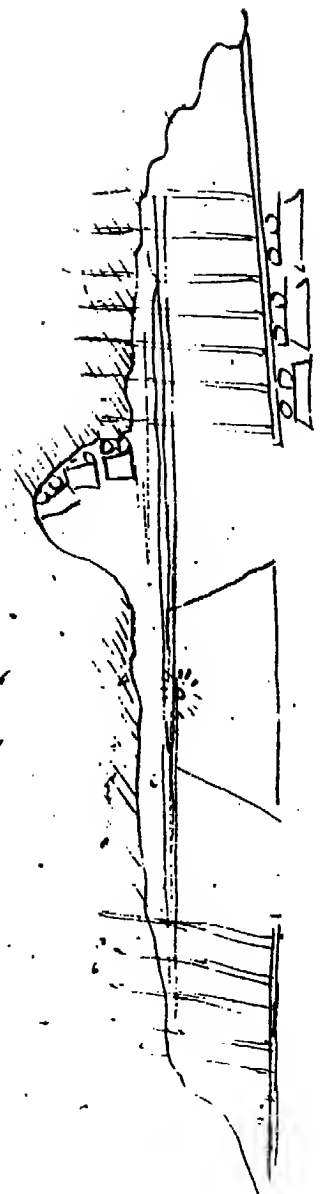
١٥ يولية ١٨٥٨

مر سعيد باشا امس فى « السكة الحديدية » دون ان يلتفت إليه أى
 عربى أدنى التفت ، فإلى ذلك الحد أصبح هذا الرجل محتقرا . ولم يحبه
 إلا بعض الأوربيين . وعندما وصل إلى القلعة ، قذف جمهور من العرب
 عرائض فى عربته ، قالقها خارج العربة قائلا لهم انه لن يصرف لهم
 مرتبات قبل شهر « توت » .

وأباح أخيرا أحد القناصل لنفسه ان يبدى بعض الملاحظات للباشا
 بشأن مرتبات الموظفين المتأخرة ، فاجابه :

— انك تدهشنى . لقد دان أبى بمرتبات اربعين شهرا للمستخدمين دون
 ان يجرؤ احد على ان يبدى له ملاحظة . وأنا ايضا أرى ان احكم كما
 يطيب لى .





ساخته شده در سال ۱۳۱۹ هجری قمری

قدیم است و
 احتمالاً
 در آن زمان
 برای
 مسکن
 بوده است

حادثه کویری کفر الزیات
 (رسم تخطيطي لإدريس أفندي)

ولقد قدر مبلغ ما ينفقه سعيد فى نزواته الجنونية المتنوعة فكان فى اليوم الواحد أكثر من دخل مصر فى اليوم الواحد .

كذب المنجمون ..

كتب المدعو « شيا أفندى » الموظف بنظارة الحربية أنه قرأ طالع سعيد باشا فأظهر أن وفاته ستحين سنة ١٢٧٥ هجرية التى بدأت فى ٩ أغسطس سنة ١٨٥٥ . وقد صودرت هذه الرسالة ، وصدر الأمر بنفى « شيا » إلى فازوغلى ، أى بإلقائه فى النيل أثناء الرحلة . وفى الوقت نفسه صدر الأمر باعتقال جميع السحرة والمنجمين وضاربى الرمل . ومن ضمن هؤلاء التسعاء الذين بلغ عددهم ثمانين شخصا ، كان الشيخ « على الليثى » وهو عالم كان يشتغل يعلم التنجيم كغيره من العلماء ، إلا أنه كان خدين أحمد باشا ، ومن المحتمل أن يغرقوه كما أغرقوا سيده .

موظف كبير !

ان الطريقة التى بها يجعلون موظفا يقفز من منصب إلى آخر جديدة بالملاحظة .

عابدين باشا موظف فى سك النقود كان قد بلغ مرتبة البكباشى وهو فى السابعة عشرة من عمره . وأصبح سكرتيرا خاصا لعباس باشا ، ثم غصب عليه الوالى فنقل رئيسا لجوقة موسيقى « المفروزة » أى فرقة الحرس المنتخبين . ولما لم يكن يصلح قط لهذه الوظيفة فقد نقلوه مديرا لاقليم الجيزة ، وكثيرا ما رآه الناس يفر من مكتبه مصطحبا حبابه ، إلى حيث يلهو على شاطئ البندر .

تبذير .. وتقتير

اصطحب سعيد باشا فى رحلته إلى « طيبة » للاحتفال بعيد ميلاده ٣٧ سفينة بخارية ، كانت آخرها تحمل مسرحا للتمثيل .

وتدر مصر حوالى ٢٥ مليون ريال (١٢٥ مليون فرنك) على الباشا الذى يحكمها ولا يفعل شيئا فى سبيل خيرها فى الحاضر ولا فى المستقبل . ولا يسعى سعيد إلا لتكديس المال ثم تبذيره مع « برافى » و « باستره » و « دى ليسبس » ويقال أنه أودع أخيرا مائة ألف جنيه فى أوروبا (٢٥٠٠,٠٠٠ فرنك) .

وهو لا يتردد فى استخدام أى وسيلة من شأنها ان تزيد ثروته . امر منذ عام ونصف العام تقريبا بإنشاء سجل جديد لمصر ، فقد طلب ان يرى المقياس الزراعى المعروف « القصبة » ، ونظر فيها فبدا له انها اظول مما ينبغى ، وكسر من أحد طرفيها قطعة تبلغ نحو عشرة أصابع قائلا : — منذ الآن ، يكون هذا طول القصبة .

وبهذه القصبة قيدت الاملاك فى مصر . وقد زاد هذا المقياس الزائف دخله بنسبة العشر .

وانا أقدر هذه النسبة على أساس من الواقعة التالية :
كان مسيو « دروفتى » (قنصل فرنسا) قد نال من محمد على ابعدية مساحتها ٣٠٠ فدان فى الفيوم . فلما جاء ابن القنصل سنة ١٨٥٨ يطالب بالامتنان الممنوح لوالده ، وجد ان الأرض التى كانت محددة المساحة فيما مضى تحوى ٢٣٠ فدانا حاليا .

جباية ضريبة

أراد سعيد باشا فى أول عهده ان يجبر بعض قبائل الصعيد على ان يدفعوا « الميرى » عن الأراضى التى يزرعونها ، وكان محمد على قد اعفاهم من هذه الضريبة لقاء خدمات ادوها له اثناء حرب الشام . فلما رفضوا ، سير إليهم سعيد باشا فرقا من الجيش هزمتهم . فاذعن الشيوخ على شرط ان يؤمنهم على حياتهم ، غير ان سعيد لم يرغب فى التصديق على هذا التعهد ، وأمر بإعدامهم . ورفض الباشا المكلف بقيادة تلك الحملة تنفيذ الأمر ، فعزله ، وأمر بربط عدد من رؤساء تلك القبائل إلى فوهات المدافع وإطلاقها ، ثم ارسل الآخرين إلى الأشغال الشاقة بالإسكندرية حيث عومل هؤلاء التعساء اقسى معاملة . وبعد انقضاء بضعة اشهر ، قال للباشا طبيبه « لاوتنير بك » ان أولئك المساكين قد اشفروا على الهلاك ، فاجابه الباشا :

— وهل تظن اننى احضرتهم إلى هنا للإبقاء على حياتهم ؟

وهذا العمل الذى افتتح به سعيد عهده قد بدد الأمال التى عقدها اصحاب النية الحسنة والقلوب الطيبة على امير رياه الاوربيون . والآن لا يسبح إلا مسيو « دى ليسبس » وفرقته بحمد الباشا الذى يملأ بالمال خزائنهم .

المجون الرسمي

لقد جرى سعيد على أن يستخدم أوسمته استخداما غريبا لا ينبغي أن نصمت عن إذاعته لكي يعتبر بذلك الملوك الأوروبيون الذين يقذفون إلى درك الحارب هذه الشارات المشرفة إذ هم يمنحونها لأمثال هؤلاء الداعرين . ففى ليالى المجون الكبرى يخلع ثيابه ويظل عاريا كجميع غلمانه ، فيقلد أحدهم وشاح « جوقة الشرف » والآخر رباط سان موريس أو « سان لازار » أو شاح « البرج والسيف » البرتغالى ، ويلهو بأن ينتهك صاحب الجلالة الامبراطورية أو جلالة ملك هذا البلد أو ذاك . ولما كان يقوم طورا بالدور الإيجابى وطورا بالدور السلبي ، فليس يحق لأحد أن يستاء .

* * *

ولا يتخذ سعيد حرسه إلا من فتیان تتراوح أعمارهم ما بين ١٢ و ١٦ سنة . وفى الصباح ، يرى المرء نحو ستة من حرس الباشا خارجين من جناحه ، وقد أنهكتهم ليلة من المجون أكثر مما ينهكهم نهار من التدريب العسكى .

ويعطى سموه خواتم من الماس وساعات ذهبية لأولئك الذين يخضعون لنزواته . وذات يوم أراد أحد هؤلاء الجنود أن يبيع جوهرة فادى ذلك إلى اعتقاله على أثر اشتباه الصائغ الأوربى فيه وظن أن الفتى قد سرقها . فصرح الجندى بأن الباشا هو الذى منحه ذلك الخاتم . ورفعوا الأمر إلى الباشا ، فقال :

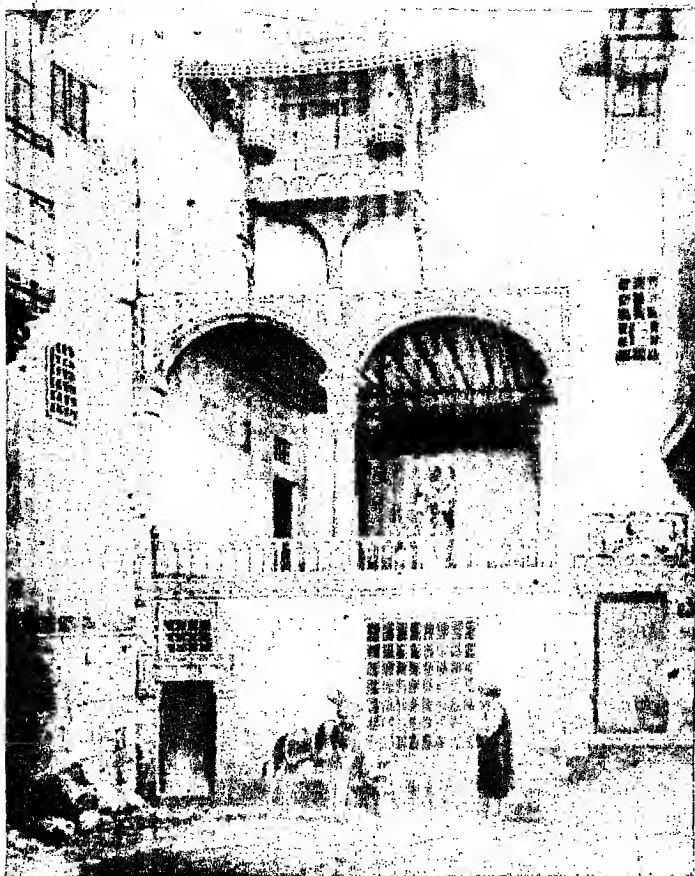
— الست حرا فى أن اعطى الهبات لمن أشاء ؟

مبادئ الحكم !

لقد أمر سموه أخيرا بدفع مرتب موظفيه عن ستة أشهر ، بينما هو مدين لهم بمرتباتهم عن اثنى عشر شهرا (١٠ ديسمبر ١٨٥٨) . وهذا هو التعليل العجيب الذى ذكره سموه لواحد من الأوروبيين كان يحدثه عن رؤس الموظفين :

— أن فى الاستبداد ضمان القوانين وحياتها . فلو اتنى كنت أدفع للجيش وللموظفين مرتباتهم بانتظام كما هو الحال لدى الافرنج إذن لطردونى من البلاد عندما تحين أول لحظة تضطرني فيها الظروف إلى تأجيل الدفع . فالأفضل هو التصرف كما نفعل . وهكذا لن يجرو موظف

على أن يترك مركزه ، ونحظى بالرضا الشعبي بعض الوقت كلما أمرنا
بصرف المتأخر من مرتبات الموظفين على غير ما يتوقعون . أما إذا كانت
هناك ميزانية فلن نستطيع أن نتصرف كما نشاء في المال العمومي ،
ولا أن نظفر بخدمات الرجال الذين نحتاج إلى طاعتهم ولا يستحقون أن
نخضعهم بالعنف .



منظر داخلي في بيت مصري
خلال القرن التاسع عشر بريشة إدريس أفندي

إسماعيل باشا

مما يجدر بالملاحظة انه من بين جميع أبناء الباشوات الذين تربوا في أوروبا لم تظفر مصر بمواطن واحد ممتاز . فلقد أنهكوا أجسامهم جميعا في المجون ، واخذوا جميع عيوبنا دون ان يكتسبوا واحدة من صفاتنا أو فضائلنا .

لا يصلح أبناء شريف باشا إلا للتكبر عليك

والجري وراء البنات .

وقد اعطى إسماعيل باشا ابن إبراهيم للدكتور « بروجيير » كتاب « وصف مصر » قائلا له :

— أرحنى من هذا الكلام الفارغ .

إسماعيل باشا محب للانتفاع إلى حد كبير . ان هباته الكريمة ناتجة عن غروره ، ولكنه لحز شحيح .. فهو يتذكر ادنى نفقائه . قال يوما :
— كلفنى غداثى مع نوبار فى القهوة الانجليزية التى قصدناها متكرين ١٣٧ فرنكا و ٥٠ سنتيما .

عندما سافر الوالى إلى فيشى فى أغسطس عام ١٨٦٧ ، جمحت الجياد التى كانت تجر مركبته فى بعض الطريق . وكان فى صحبته « نوبار » و « شارل ادمون » فرجياه الا يرتاع والا يخشى شيئا ، ولكن خوفه دفعه إلى ان يقذف نفسه خارج العربة فسقط فى الوحل . وقبل ان ينزل نوبار ليعينه على النهوض قال لصاحبه :

— ها هو ذا فى معدنه .

وعلى اثر عودة الباشا إلى مصر ، وقد صده اصحاب الاموال الذين حاول الاستدانه منهم ، خفض مرتبات موظفيه . وكان نوبار ضمن من شملهم هذا الإجراء ، فاستاء وعزم على ترك الخدمة . ولكنه مضى فاستشار إحدى قارئات الغيب فى اوراق اللعب ، وبناء على آرائها قرر البقاء .



الفهرس

الصفحة

الإهداء	٣
تمهيد إدريس أفندى (١٨٠٧ - ١٨٧٩)	
مؤرخ أهمله التاريخ	٥
مقدمة	١٧

الجزء الأول

صور من المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر

القاهرة	٢٨
مناظر من الأسواق	٢٩
عدالة المحتسب	٣٣
الامن والعقوبات	٣٤
فن التجاره	٣٥
منادات الباعة فى القاهرة	٣٦
الكيف	٣٨
الحريم	٣٩
زوج فرنسى - زوجات الشيخ حسن الجبرتى	٤٢
فى الحمام	٤٤
رذيلة تركية	٤٥
دراويش	٤٦
حفلة ختان	٤٧
كرم ومرح وخلود	٤٨
العرس الحزين	٤٩
جولة فى شرقى الدلتا (١٨٣٦)	٥٢
دمياط	٥٥
الأتقياء والماجنون	٥٦
سورى فى تاريخ دمياط الحديث	٦١

صفحة

١٠٣	رثاء محمد على لإبراهيم	عباس باشا :
١٠٤	نشأته	
١٠٦	سياسته	
١٠٨	بغضه للأوربيين	سعيد باشا :
١١٤	الابتهاج بتوليته	
١١٥	وظيفة جديدة للجيش	
١١٦	اهتمامه بمصالح مصر	
١١٧	مصرع أحمد باشا	
١١٨	١٥ يولية ١٨٥٨	
١٢٠	كذب المنجمون	

رقم الايداع بدار الكتب ٤٧٧٦ / ١٩٩١

الترقيم الدولي 1 — 0132 — 08 — 977 — ISBN

صفحة

٦٣	من ذكرياتي في الاقصر
٦٩	الفلاح

الجزء الثاني

من محمد علي إلى إسماعيل

محمد علي :

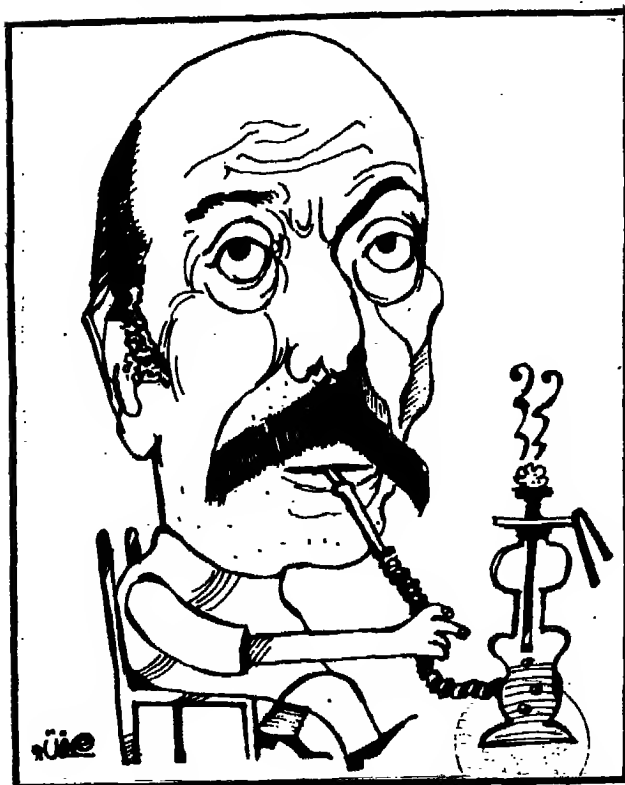
٧٦	صورته
٧٧	شخصيته
٧٨	عسف الاستبداد
٨١	ظالم باشا
٨٢	واضع القانون ينتهكه
٨٤	دستور الابتزاز
٨٥	تدمير المعدات على حساب الجيش
٨٧	ثورة الصعيد (١٨٢٤)
٨٩	ابن «قولة» البار
٩٢	أين تربية الشعب ؟
٩٣	البؤس لمصر الغنية
٩٤	ماذا عمل لمصر ؟
٩٥	آخر أيام محمد علي

إبراهيم باشا :

٩٨	صورته
٩٩	مذبحة المماليك الثانية (إسنا - ١٨١٢)
١٠٠	إبراهيم القائد

● كتاب اليوم ● عدد أغسطس

جوار من الشرق



للكتاب الساخر :

محمود السعدني

● ترتب صدوره ●



المنظف العملاق ساتو

يبدد الذي يغسل ويظهر ويعطى بياضا ناصعا واللوان زاهية في آن واحد ..
بعد انجاث علمية دقيقة شركة الاسكندرية للزيوت والصابون

إدريس أفندى فى مصر



منذ أكثر من ثلاثين عاما ، عثر الدكتور أنور لوقا الأستاذ المصرى بالجامعات الفرنسية على مذكرات تاريخية هامة ضمن مؤلف ضخيم بالفرنسية يتكون من أربعة عشر مجلدا عن مصر ، للمهندس والفنان والمستشرق الفرنسى پريس دافين الذى وفد على مصر فى اواخر عهد

محمد على ، ومكث بها إلى اواخر عهد الخديو إسماعيل ، وخلال مقامه شهر إسلامه وسمى نفسه إدريس أفندى ، وعاش الشعب المصرى ، ودرس التاريخ المصرى القديم ، واتقن الهيروغليفية ، غير أن عمله الخالد يتمثل فى لوحاته الرائعة للعمارة الاسلامية والفنون المختلفة ، والتى قدم فيها إلى العالم ما خفى من جماليات الفن الاسلامى العظيم ، فى مذكراته التى ترجمها الدكتور أنور لوقا وتنتشر لأول مرة . يكتب إدريس أفندى عن مصر بعين فنان ومحب ومتعاطف مع الناس ، يرسم صورة للحياة اليومية ، للمجتمع ، للتقاليد ، للعادات ، للأسواق ، إنها لوحة فريدة من اعظم ماكتب إدريس أفندى (پريس دافين) بالكلمات .

■ جمال الفيضانى ■